الباب الثانى

السعادة

الباب الثانى
السعادة

ظهرت نظريات السعادة فى الفكر اليونانى فى إطار الفلسفة الخلقية وربطت بعض المذاهب بين السعادة والخير والفضيلة. (فلاسفة اليونان وفلاسفة المسيحية)، أو بين السعادة والمنفعة (بنتام ومل)، كذلك كانت هناك السعادة الروحية أو الآخروية (الفلسفة المسيحية والأفلاطونية المحدثة) والسعادة الحسية. الأولى تمثل الفكر المثالى والثانية تمثل الفكر الواقعى التجريبى. وجاء مفهوم رسل للسعادة أقرب إلى المفهوم الواقعى لها، فالسعادة يمكن الحصول عليها، لهذا فإن آراءه تتشابه وإن لم تتطابق مع الاتجاه النفعى فى الأخلاق. ولقد نظر رسل للسعادة نظرة تحليلية واقعية باعتبارها ظاهرة يمكن دراستها، وعلى الرغم من انتماء رسل للفلسفة التحليلية التى تؤكد أن مهمة الفلسفة التحليل. ويخرجون الأخلاق ونظريات السعادة من دائرة الفلسفة، إلا أنه تناول السعادة وحاول تحليل أسباب الشقاء وتحديد طرق الحصول عليها، وهو بذلك يتناول مشكلة تقليدية فى الفلسفة الإنجليزية، تتمثل فى فكرة رئيسية عند أصحاب مذهب المنفعة العامة، ألا وهى كيف يمكن تحقيق أكبر قدر من السعادة؟. إلا أن رسل تناول السعادة من منظور مختلف عن منظور الفلسفة التقليدية لها، حيث وضح الطابع التحليلى والنظرة الموضوعية فى معالجته للموضوع. فإن كان كذلك فما مدى التزامه بالتحليل كمنهج؟ بحيث يمكن تطبيقه فى موضوعات ذات طبيعة مختلفة عن المجالات التى يطبق فيها التحليل وبالتالى هل يمكن اعتبار المنهج التحليلى منهجاً مثمراً فى معالجة كل المشكلات الإنسانية؟

الفصل الأول
الصحة النفسية والسعادة

إن تمتع الإنسان بالصحة النفـية، يعد عنصراً ضرورياً لإحساسه بالسعادة، والصحة النفـية هى قدرة الأفراد على التكيف مع أنفسهم ومع العالم عموماً، وعلى ممارسة السلوك الاجتماعى السليم ومواجهة حقائق الحياة وقبولها، فإذا تحقق ذلك يحصل الفرد على أكبر قدر من النجاح. وكما أن الصحة الجسمية تتضمن المناعة ضد الأمراض ووجود الجسم على حالة طيبة، فإن الصحة النفـية بالمثل تؤكد امتناع وجود الاضطرابات السلوكية أو الانحراف، وبهذا المعنى تكون هناك علاقة متبادلة بين الصحة الجسمية والصحة النفـية أو العقلية؛ وإن كان علماء النفس يهتمون بالصحة النفـية للفرد لأنها تحقق سعادة الفرد والمجتمع، إلا أن هناك من أسباب السعادة مايستطيع الفرد أن يكتسبها بنفسه باعتبارها مشاعر وأهواء يستطيع أن يراقبها فى ذاته. ويتمكن الفرد من التخلص من كثير من الأهواء المدمرة لذاته ولسعادته. والواقع أن هناك بعض الاضطرابات النفـية يعانى منها الإنسان، إلا أنها قد لاتصل لدرجة المرض النفـى وتكون لدى كثير من الأسوياء وتقلل درجة سعادتهم وتنبع من ذواتهم وتوجه سلوكهم. فالشعور بالذنب وهوس الاضطهاد والإرهاق العصبى والقلق والأنانية وداء العظمة وحب السيطرة والتملك وغيرها من الأمراض النفـية، توجد لدى كل الأفراد الأسوياء، لكنها إذا وصلت إلى درجة من الشدة أو إذا زادت عن حد معين تصبح سبباً رئيسياً فى شعور الإنسان بالتعاسة، فإذا كانت المشاعر النفـية والأهواء والرغبات والدوافع والميول تعد ضرورية لبقاء النوع الإنسانى، وتعتبر عاملاً رئيسياً لإشباع حاجته وتحقيق سعادته، إلا إنها إذا زادت عن الحد قد تكون سبباً لشقائه، لذلك لابد أن يتنبه الإنسان لدوافعه ورغباته قدر الإمكان ويراجع ذاته باستمرار ويعتمد على العقل فى تنظيم مشكلاته، ويتخلص من الاستغراق الذاتى ، فإن صلاح الفرد واكتسابه للسعادة يتمثل بالدرجة الأولى فى مراقبته لذاته والاعتدال فى رغباته. ولقد درس رسل بعض المناحى النفـية التى تؤثر على سلوك الإنسان وبالتالى على سعادته، وحلل بعض الظواهر النفـية وأسبابها وحاول تحديد بعض الطرق للتخلص منها باعتبارها تعد عناصر أساسية للصحة النفـية.

١ - الشعور بالذنب :

أ - تعريفه وأسبابه : إن الشعور بالإثم أو الذنب أو الخطيئة. إنما هو شعور شاذ بالخجل والمذلة والاشمئزاز من الذات وينشأ حين نحيد عما ترسمه وترضاه ضمائرنا. والشخص الذى يشعر بالإثم والخطيئة يحاسب نفسه على كل هفوة أولفته. ذلك لأنه يكون شديد السخط على مايفعله أو يفكر فيه ويرى فى أهون أخطائه ذنوباً لاتغتفر، فكأن هذا الفرد فى حاجة موصوله إلى عقاب نفسه سواء كان هذا العقاب مادياً أو معنوياً، ويرى رسل "إن الشعور بالذنب كان ينظر إليه قديما، بأنه يحدث عندما يأتى الإنسان فعلا لاأخلاقياً ويشعر بالندم ثم التوبة، ثم أصبح يعرف فيما بعد ما يسمى الضمير، كما كان الضمير يعرف بأنه صوت الله، إلا أن فى عصرنا الحالى أصبح ينظر للضمير باعتباره مجموعة من المشاعر المختلفة. لذلك فالحقيقة ان الإنسان يشعر بالذنب إذا أحس بانفضاح أمره، ومن الخوف من استهجان المجتمع له أو الطرد منه[١].

أما بالنسبة لأسبابه فإن الشعور بالذنب ينظر له باعتباره نوع من تطهير النفس أو نوع من الغفران، أى يكون الدافع إليه الرغبة فى التكفير عن الإثم، ونوع من تصفية الحساب. ولقد كانت الكنيسة تنظر إلى هذا النوع من العقاب كوسيلة لإصلاح المذنب وبذلك تحاول التوفيق بين العبد وربه، كذلك ينشأ الشعور بالذنب من خلال التربية الأخلاقية المتزمتة. يقول رسل "إن الشعور بالذنب يتكون لدى الفرد منذ طفولته، ومن التعالم الأخلاقية التى تدعو إلى الزهد، وإن كل شىء شر ورذيلة، فالفرد فى كبره لايعرف لماذا يشعر بالذنب من جراء عمل معين مثلا، لأن التعاليم الأخلاقية قد تكونت وترسبت فى اللاشعور، كذلك التعاليم الأخلاقية المتعلقة بموضوع الجنس التى يتلقاها الطفل من الأم أو المربية تكون لها علاقة بالشعور بالذنب فى الكبر، فالطفل الذى ينشأ كارها للجنس وللأعضاء الجنسية تكون لديه مايسمى "بعقدة أوديب" فيكره المرأة ويفضل الزوجة التى تكره الجنس وبالتالى يفقد لذة الاستمتاع، وإذا كانت الزوجة مصابة بالبرود الجنسى فإنه يسعى للإشباع الجنسى من امرأة أخرى، الأمر الذى يزيد من الشعور بالإحساس بالذنب، كذلك تعانى المرأة من نفس العقدة، وإن كانت أقل معاناة من الرجل، فالتربية التى تستند

---

(١) B. Russell : The Conquest Of Happiness, (1930), George Allen and Unwin, London. 1975. PP. 74-75.

على مجرد التحريم والكبت للغرائز الطبيعية تؤدى بالطفل لكراهية واحتقار كل ما هو طبيعى، وتخلق شعوراً بالذنب ليس له مايبرره، ولما كانت أخلاقنا قائمة على الكبت والخرافة ووضعت بواسطة قساوسة ونساء مستعبدات جاهلات، ولم تستمد من أسس عقلية واضحة، أو من دراسة لدور الفرد فى المجتمع، فإن الفرد سوف يعانى بالضرورة من عقدة الشعور بالذنب[1].

ب- التخلص من الشعور بالذنب: إن الشعور بالذنب درجات، وفى حالات كثيرة لايصل إلى مرحلة المرض النفسى، لذلك يستطيع الإنسان العادى أن يتخلص منه ويحقق لنفسه السعادة، ويرى رسل "أن الإنسان إذا شعر بالذنب أو الندم عليه أن يبحث أسباب ذلك بطريقة عقلية بحتة، ويفتش فى عقائده الموروثة التى تلقاها فى طفولته، ولايؤمن بها إلا بعد فحصها تحت مجهر العقل وبحجج وبراهين عقلية، ويرى إن كانت تستحق التقديس، ثم يحاول أن ينقل هذه الحجج العقلية من مستوى الشعور التى مستوى اللاشعور، سواء بالنسبة للمعتقدات التى قرر قبولها أو تلك التى قرر رفضها. كذلك لابد أن يبتعد الإنسان عن العاطفة لأنها تجعله يتخذ مواقف مختلفة بالنسبة للموضوع الواحد، وأن يحذر اتخاذ مواقف يستند فيها على التفكير المنطقى والتفكير الخرافى فى آن واحد، أو تكون وسطا بين العقل والخرافة، كما يجب ألا يتوقف التمرد على المعتقدات الأخلاقية الموروثة، لأنها تكون متأصلة فى اللاشعور، فليس كافياً أن يرفض الإنسان أو يقبل معتقداً أخلاقياً ما، بل لابد أن يفتش ويبحث عن المعتقدات الأخرى التى قد تتأثر برفض أو بتقبل هذا المعتقد، كما يجب ألايدع فرصة لأن يظهر الشعور بالذنب، إلا إذا كان إحساسه بهذا الشعور بالذنب جاء نتيجة لمبدأ أخلاقى عقلى، كان الإنسان قد خطه لنفسه، وحتى الشعور بالذنب كنتيجة لنقضه أحدى المبادئ الأخلاقية العقلية قد يكون الإنسان قد وضعها لنفسه، يعتبر أمراً كريهاً، لأن فى الشعور بالذنب ذل وتحقير للنفس الإنسانية، فإذا شعر الإنسان بأنه أخطأ، عليه أن يبحث عن الأسباب العقلية لهذا الخطأ ويدرس الأسباب الموضوعية والظروف التى تكون قد أدت إلى مثل هذا الفعل، فيستطيع أن يتجنب مثل هذا الفعل مستقبلا، بالاقتناع الكامل والحقيقى بأن مافعله غير مرغوب فيه، ويتجنب الظروف التى قد تؤدى إلى حدوثه مرة أخرى، وإذا ما استطاع الإنسان الاعتماد

---

(١) Ibid., PP. 76-78.

على العقل فى وضع وتأسيس مبادئه الأخلاقية فإنه يستطيع تحقيق التناسق بين طبقات الشعور وتحقيق الشخصية المتوافقة وإيجاد هذه الهارمونية، لايتم إلا من خلال التربية العاقلة الحكيمة»[1].

ولكن ألايفسد العقل العواطف العميقة النبيلة؟ يجيب رسل على هذا السؤال بأن من يتصور إفساد العقل للعواطف النبيلة يستند على مفهوم خاطئ لوظيفة العقل. إن العقل ليس من وظائفه أن يولد العواطف، ولكن وظيفته أن يمنع الأهواء والعواطف التى تجعل الإنسان ينحى عن السلوك القويم. وأن يجد الوسائل التى تحد من العواطف المدمرة مثل الحسد والكراهية. ومن يفترض أن التقليل من أمثال هذه العواطف سوف يقلل أيضاً من عواطف أخرى ويضعفها يستند على فرض خاطئ، لأن العواطف من أمثال المحبة والحب العائلى والصداقة وحب الخير والرغبة فى العلم والفن، لايعترض العقل عليها، بل إن الإنسان المتمتع بها يكون أكثر سعادة، وبالتالى لن يسعى للتقليل منها أو منعها، لأنها توفر الحياة السعيدة له وللآخرين، ومثل هذه العواطف ليس فيها شىء مناقض للعقل بل على العكس من ذلك، فالرجل الذى يستخدم العقل فى التكامل واكتساب النظرة العقلية ويسعى لتحقيق أهداف غير ذاتية، أفضل من الذى يعيش فى صراع مع نفسه ويجعل من ذاته محور الكون، ولما كانت الأخلاق التقليدية قد جعلت الإنسان يتمركز حول ذاته، فإن ذلك التمركز أعطى الفرص لظهور الشعور بالذنب، وربما جاءت كراهية العقل وعدم اللجوء إليه من تلك النظرة الجزئية للذات[2].

والحقيقة أن رسل افترض أن الإنسان فى مقدوره أن يحقق السعادة لنفسه، إذا ما استطاع التخلص من الشعور بالذنب ويتم له ذلك بالبحث عن الأسباب العقلية للإحساس بهذا الشعور، كما افترض أن الشعور بالذنب ينشأ بسبب الأخلاق التقليدية والمعتقدات التى لاتستند على أساس عقلى، لذلك على الإنسان أن يبحث معتقداته الأخلاقية واحدة تلو الأخرى، ويرفض كل ماليس له أساس عقلى، وبذلك تحقق له السعادة، إلا أن تلك العملية سوف تجعل السعادة قاصرة على الفلاسفة والحكماء دون غيرهم، فاستخدام العقل فى تقرير المبادئ الأخلاقية وفحص الموروث منها، وتتبع النتائج

---

(١) Ibid., PP. 82- 82.

(٢) Ibid., PP. 82- 83.

المترتبة على كل مبدأ يحتاج لمهارة عقلية ومعرفة شاملة، وذلك لايتوفر للعامة من الناس، بل إن العلماء رغم تمتعهم بقدرات عقلية ومهارة فى مجال أبحاثهم، ربما لايتوفر لديهم الحكمة التى تتمثل فى القدرة على تتبع نتائج المبدأ الأخلاقى فى الواقع العلمى.

كذلك من الواضح أن رسل يطالب بإطلاق الحرية للفرد لدراسة أسباب الشعور بالذنب وإخضاع عقائده الخلقية الموروثة للحجة والمنطق، ويجعل المبدأ الأخلاقى قائماً على لذة الفرد ومنفعته، وإن كان ذلك يتفق مع الاتجاه النفعى عند رسل، إلا أن ذلك سوف يفقد المبدأ الأخلاقى قيمته فى تنظيم السلوك، بل ويتناقض مع اعتبار رسل أن المبادئ الأخلاقية ثابتة. كذلك من الملاحظ أن هناك الكثير من الملابسات والظروف النفسية، تمنع العقل من الوصول إلى أحكام عقلية خالصة، فالميول والعاطفة تجعل الإنسان يتخذ كثيراً من المواقف التى قد لايوافق عليها المعيار العقلى، وقد تلجأ النفس للكثير من الحيل الدفاعية التى تتم دون وعى الإنسان، فتجعل الفرد يعتقد أنه يفكر بطريقة منطقية، وأن النتائج التى توصل إليها نتائج عقلية خالصة، مع أنه يكون فى الحقيقة منقاداً بعواطفه وأهوائه. إن القول بتحييد العاطفة قد يكون ممكناً من الناحية النظرية، إلا أن الواقع العملى يثبت عكس ذلك، فقد يعتقد الإنسان بمبدأ أخلاقى معين ويترتبط به عاطفياً وأحياناً يجد نفسه ميالاً رغماً عنه لرفض مبدأ آخر.

٢ - هوس الاضطهاد :

أ - تعريفه وأسبابه : يعتبر جنون الاضطهاد من الحالات المرضية فى علم النفس، إلا أن هناك بعض الحالات قد لاتصل إلى مرحلة المرض، أى قد يوجد هذا الهوس عند الأسوياء أو إحساس الإنسان بهوس الاضطهاد يكون سبباً فى إحساس الإنسان بالشقاء. ويعرف رسل هوس الاضطهاد "بأن بعض الناس يتصورون أن هناك من يود قتلهم أو تعذيبهم وإيقاع الأذى بهم، لذلك يتخذون الحيطة للدفاع عن أنفسهم طبقاً لنوع المخاطر التى يتصورونها، الأمر الذى يدعوهم للقيام بأعمال عنيفة ليس لها مايبررها. وإن كانت تلك الحالة من حالات الجنون، إلا أنها قد لاتصل إلى مرحلة الجنون الكامل، وتوجد عند بعض الناس بدرجات متفاوتة، فتقلل من سعادتهم، لذلك لكى يحقق هؤلاء الأفراد سعادتهم، لابد لهم من التخلص من هذا الهوس، لأنه لايمكن أن يشعر الفرد بالسعادة، طالما يتصور أنه لايحصل من الآخرين إلا على المعاملة السيئة[١].

---

(١) Ibid., PP. 87.

وغالباً ما يشعر الإنسان بهذا النوع من الهوس بسبب ميله لتقدير ذاته والمغالاة فى تقدير مايتمتع به من مزايا. فيشعر بالاضطهاد عندما يرى الآخرين لايقدرون ذاته كما يقدرها هو نفسه، ويعرض رسل لأسباب وصور الشعور بالاضطهاد بقوله "أنه من المتعارف عليه أن التحدث عن الآخرين بسوء نية، يعد أمرا كريها ومرفوضاً أخلاقيا، وغالباً ما يشعر الفرد بالسخط عندما يعرف ما قد تحدث به الآخرون عنه، إلا أنه لايشعر بمثل هذا السخط عندما يتحدث عن الآخرين، والمشكلة أنه لايتصور أن الآخرين يسلكون مثل ما يسلك، لذلك قد يتحول سخطه إلى شعور بالاضطهاد. والواقع أن من أسباب الشعورى بالاضطهاد أننا نتوقع من الآخرين أن يقدرون ذواتنا كما نقدرها نحن، وأن يشعرون بالحب والحنان كما نشعر به تجاه أنفسنا، أى ينظرون نفس النظرة التى ننظر بها لأنفسنا. كذلك غالباً ما نميل لتقدير مزايانا بصورة غير واقعية، وكل ينظر لنفسه بأنه الأفضل فنقع فريسة للشعور بالاضطهاد، فقد يؤدى فرد ما عملا تافهاً ويتصور أن الآخرين لايعطونه حقه اللازم من التقدير، لأنهم يحقدون عليه لعدم قدرتهم الوصول إلى مرتبته، بل وعندما يواجه عمله بالرفض، يخيل له أنهم يتأمرون عليه. كذلك يحزن فاعل الخير عندما لايقابل الناس أفعاله بالشكر والعرفان بالجميل ويشكو دائماً أنه يقدم الخير ولايتقبل إلا نكران الجميل والمصلح الاجتماعى الذى ينادى بمنع التدخين فعلاً، لايستقبل شكراً من المدخنين. والسياسى الذى يعمل لخير شعبه ويمسك بكل مقاليد السلطة لتحقيق هذا الغرض، فإنه يصاب بخيبة أمل عندما يكتشف بعد فوات الوقت ان شعبه غير راضٍ عنه. والحقيقة أن هناك عاملاً مشتركاً بين هؤلاء الثلاثة يتمثل فى عدم نقاء دوافعهم للخير، لأن هناك الرغبة فى السيطرة وحب السلطان وراء تلك الأعمال، كذلك إن من نقدم لهم المعروف أو الخير نحرمهم من متع يستمتعون بها، ويكون تقديم الخير والمعروف لهم عكس إرادتهم[1].

ب- **التخلص من هوس الاضطهاد** : لابد أن يراقب الإنسان ذاته باستمرار، ويفحص دوافعه وأنماط سلوكه. والدوافع نوعان شعورية واضحة للفرد ويسعى لتحقيقها وأخرى لاشعورية تعمل فى الخفاء وكامنة فى اللاشعور. ويتخذ رسل موقفا شبيها بموقف سقراط قديماً فى الدعوة إلى أن يعرف الإنسان نفسه بنفسه، وإن كان رسل قد اعتمد على

---

(١) Ibid., PP. 89 - 91.

علم النفس الحديث الذى يقسم الشعور الإنسانى إلى مستويات شعورية، ولاشعورية. ويرى رسل" أنه لكى يتخلص الإنسان من الشعور بهوس الاضطهاد عليه أن يفتش فى اللاشعور عن دوافعه الحقيقية التى تكمن وراء سلوكياته. والتى قد تتناقض مع ظاهرها، ويعد أمراً ضرورياً أن يتشكك كل قائد مسئول أو فاعل خير فى دوافعه، لأن أمثال هؤلاء الناس يكون لديهم تصور خاص للعالم وكيف ينبغى أن يكون، ولكن على الرغم من صحة هذا التصور أحياناً إلا أنهم يغفلون أن لكل إنسان الحق فى تصور العالم الذى يرغبه، وأمثال هؤلاء الناس يعتقدون فى صحة أفعالهم على الرغم من أن رعاياهم المحتكين بهم، لم يفعلوا ما يبرهن لهم على ذلك، أو ما قد يظهر صحة هذا التصور، وغالباً ما يكون هذا الاعتقاد نابعاً من رغبة فى السلطان أو من دوافع أخرى مثل الرغبة فى الغرور والتباهى، لذلك يتألم من سخرية الآخرين منه أو عدم حب رعيته له. وإن كانت الأخلاق التقليدية قد نادت بفضيلة "نكران الذات" فتحقيقها أمر صعب، كما لايمكن تجريد أى سلوك من دوافعه مهما كان هذا السلوك قويماً أو خيراً. ولماذا نجرده؟ إذا كانت الدوافع من أسس استمرار الحياة، لذلك لابد أن يتشكك الإنسان فى دوافعه ويعترف بأهميتها فى نفس الوقت[1].

كذلك لكى يتخلص الإنسان من التعرض لهوس الاضهاد، وبالتالى يتمتع بالصحة النفسية، عليه أن يكون واقعياً فى تقويم ذاته، يقول رسل" لاتغالى فى تقدير مزاياك، فالشخص الذى يعانى من عدم اعتراف الآخرين بقيمة عمله أو موهبته، فإنه سوف يصمد ويصر ولن يستسلم إذا كانت موهبته حقيقية، أما الذى يكون مبالغاً فى مزاياه، . فإنه سريعاً ما يتعرض للشعور بالاضطهاد، فالإنسان الذى يفضل عمله أولاً ثم استحسان الآخرين له ثانياً، يعتبر ذو موهبة حقيقية، أما الذى يسعى للاستحسان ومديح الآخرين أولاً، فإنه ليس لديه موهبة حقيقية وسريعاً ما يقع فريسة للشعور بالاضطهاد[2]، ويعد الشعور بالمساواة وأن لكل فرد وجهة نظره الخاصة، حاجزاً مانعاً من الشعور بالاضطهاد، ويشرح رسل ذلك بقوله" إن لكل إنسان وجهة نظره الخاصة به وزاوية معينة ينظر فيها للحياة، فلاتطالب فردا ما أن يغير وجهة نظره من أجلك، أو أن ينكر ذاته ويغير خطط

---

(١) Ibid., PP. 93.

(٢) Ibid., PP. 94.

حياته من أجلك، ولاتتصور أن الآخرين يفكرون فيك ومشغولون بك، وأنك ذو أهمية خاصة بالنسبة لهم، ويكرهونك لأنك أفضل منهم ويتآمرون عليك، على الرغم من معرفتك وإدراكك بأنك ليس لك مثل هذه الأهمية، الأمر الذى يؤدى بك إلى محاولة عرض مزيد من الأدلة والبراهين، التى تحاول أن تثبت بها كراهية الآخرين لك، لذلك لابد أن يواجه الإنسان نفسه مواجهة صريحة فلايحاول أن يخدعها لأنه إذا لم يفعل سوف يكون فى بداية الطريق إلى التعاسة[1].

والواقع أن المظاهر المرضية لحالات هوس الاضطهاد لا تكون بمثل تلك البساطة التى عرضها رسل، وبحث الإنسان فى دوافعه اللاشعورية التى تكمن وراء أفعاله ليس أمراً متيسراً، وغالباً مالا يستطيع الإنسان الاحتكاك بموضوعات النفس، ويرى فرويد أن علاقة اللاشعور بالغرائز الفطرية وثيقة، وهو أقرب مناطق النفس إلى الغرائز البدائية التى نرثها، قبل أن تخضع لعوامل التهذيب التى تتم عن طريق التربية. . فقد بين التحليل النفسى أو الجهد الذى يبذله الناس فى تهذيب النظرة الموروثة نادراً ما يبلغ حد الكمال، حيث تبقى مجموعة من الميول الفطرية الخشنة مدفونة فى اللاشعور طوال العمر، تحاول جاهدة أن تظهر، كما يتجاهل اللاشعور معايير الخلق والمنطق، والعمليات اللاشعورية تكون منعزلة انعزالا عجيباً عن الحقائق الخارجية، لذلك لايمكن التأثير عليها بأى وسيلة إلا إذا استطعنا إخراج ما فى اللاشعور إلى الشعور، ولما كانت موضوعات اللاشعور تتكون فى مراحل الطفولة، فإنها تكون دائماً متشابكة ومعقدة[2]، لذلك مراقبة الإنسان لدوافعه أمر لن يتوفر إلا لمن لهم خبرة بالتحليل النفسى، فلايمكن اعتبار مراقبة الدوافع باستمرار من الوسائل الناجحة فى معظم الأحيان.

كذلك من الملاحظ أن الإرشادات التى وضعها رسل لتجنب الإصابة بهوس الاضطهاد، تشبه إرشادات الوعظ الدينى وما كانت تنادى به الأخلاق التقليدية التى رفضها رسل واعتبرها مسئولة عن الإصابة بالأمراض النفسية. وإن كان رسل قد تناولها بعمق أكثر واستبدل علم النفس بالدين، إلا أنه لم يلتزم تماماً بمسلمات علم النفس، لأنه اهتم بالمواقف الخلقية التى قد تؤدى للإصابة بهوس الاضطهاد فأهمل كثيرا من الأسباب

---

(١) Ibid., PP. 95.

(٢) د. اسحق رمزى، علم النفس الفردى أصوله وتطبيقه، ص٤٨ - ٥٠، دار المعارف، ١٩٦١، القاهرة

التى حددها علم النفس الاكلينكى، كما يبدو أن رسل يحاول تبرير فضيلة التحكم فى الذات ومراقبة الإنسان لدوافعه باستمرار من منطلق نفعى، باعتبار أن هذه الفضيلة تؤدى إلى السعادة، وبذلك يتخذ من المنفعة تبريراً للفضائل التى نادت بها الأخلاق التقليدية.

٣ - التعب:

أ - تعريفه وأسبابه : أصبح الإرهاق والإجهاد العصبى سمة من سمات العصر، وماشهده العصر من حربين عالميتين جعل الإنسان يمر بأزمات وتجارب قاسية، والتغير الاجتماعى الذى حدث بسبب التقدم الصناعى الهائل، والذى جاءت نتائجه عكس تلك التى كانت مرجوة منه، كل ذلك أدى إلى زيادة الإرهاق العقلى والاضطراب النفسى، ويرى رسل "أن التعب أنواع، بعضها يشكل عقبة أمام تحقيق السعادة، والبعض إذا لم يزد عن الحد قد يؤدى السعادة. فالتعب العضلى إلى حد معين يؤدى إلى النوم بعمق وانفتاح الشهية والمتعة والاستمتاع بالراحة، وزيادته تؤدى إلى العكس، فالمرأة فى المجتمع الزراعى تشيخ فى الثلاثين والأطفال فى بداية عصر النهضة كان الإجهاد العضلى يقضى عليهم، أما فى العصر الحاضر فقد ظهر الإرهاق العصبى الذى يقل لدى العمال ويكثر انتشاره بين الأغنياء والمفكرين ورجال الأعمال"(١).

ويصاب الإنسان بالإرهاق العصبى (التعب العقلى) نتيجة للتوتر والقلق، ويوضح رسل أسباب شعور الإنسان بهذا النوع من التعب النفسى "بأنه يحدث نتيجة للضوضاء التى نعانى منها أثناء العمل على الرغم من التعود عليها، كذلك رؤية وجوه الغرباء وكثرة الزحام فى المدن؛ يكبت غريزة حب الاستطلاع عن الإنسان ويجعله ينغلق حول ذاته، ومن الملاحظ أن معظم المتحضرين يعرضون للإصابة بالإرهاق العصبى، لأن التحضر لايعطى الإنسان فرصة التعبير عن انفعالاته. ويجبر الفرد على كبتها. كما يعتبر القلق مصدرا رئيسياً للإصابة بالإرهاق العصبى، ويعود القلق إلى كثرة المشكلات اليومية وتعليق أهمية كبيرة على الموضوعات الخاصة، وتعود التفكير فى موضوعات لايمكن الحكم عليها أو اتخاذ قرار فيها قبل حدوثها، مما يجعل الإنسان أقرب إلى التخيل الوهمى

---

(١) B.Russell : The Conquest of Happiness, PP. 53-54.

أو المرضى، ويتولد القلق من اختلاط الأفكار بعضها ببعض وتشوشها وقد يستمر أيضاً أثناء النوم. لأن معظم الناس ليس لديهم القدرة على التحكم فى أفكارهم والكف عن التفكير فى تلك الموضوعات التى تسبب القلق. لذلك يحملونها معهم فى نومهم مما يسبب لهم الأرق والسهر والتشوش فيكون ذلك سبباً فى تعاستهم[1].

ب- التخلص من التعب :

يستطيع الإنسان أن يتخلص من التعب العضلى بالراحة، أما التخلص من الإرهاق العصبى أو التعب العقلى فيتم بمحاولة بحث أسبابه، والاعتماد على العقل والتفكير المنطقى لحل المشكلات التى تواجهه، وبالشجاعة فى مواجهة الرأى العام والمجتمع، وبالبعد عن الاستغراق الذاتى وتصور أنه فى جانب، والعالم فى جانب آخر، ويرى رسل أن "التخلص من الإرهاق العصبى" يتم بأن يحاول الفرد أن يخرج من ذاته، وينظر إليها من الخارج باعتبارها جزء بسيط من الكون الفسيح، وأن يحاول أن توجهه أفكاره واهتماماته اتجاهات غير شخصية، فإن تحقق له ذلك سوف يشعر بالهدوء والطمأنينة. كذلك إذا اعتمد الإنسان فى حل مشكلاته على التنظيم العقلى والتفكير المناسب فى الوقت المناسب، فإنه يصبح قادراً على اتخاذ القرارات الصائبة ويتخلص من القلق. وإن كانت الصعوبة التى تواجه الإنسان دائماً. تتمثل فى أن أسباب القلق متأصلة فى اللاشعور، إلا أنه طالما أن مكونات اللاشعور، كانت فى الأصل نتاج تجارب لاشعورية مرت بالإنسان فى طفولته، ثم تحولت إلى اللاشعور، فإن فى مقدور الإنسان فى كبره أن يمارس تحويل ونقل التجارب الشعورية إلى اللاشعورية بإرادته، بأن يحاول أن يقنع نفسه بالحجج العقلية بعدم جدوى القلق، ثم ينقل هذا الاقتناع وتلك الحجج إلى اللاشعور. أما بالنسبة للمخاوف الشائعة والتى تكون سبباً للقلق، مثل الخوف من السرطان مثلا أو الإفلاس، فإنه لا يمكن التغلب عليها بتجاهلها إنما بمعايشتها، والطريق الصحيح لمواجهة مثل هذه المخاوف، يكون عن طريق التفكير العقلى فيها بهدوء وتركيز حتى تصبح بينها وبين الفرد نوع من التآلف. وأخيرا لابد أن يتسلح الفرد بالشجاعة فى مواجهة الرأى

---

(١) Ibid., PP. 56.

العام، لأنها أفضل وسيلة للتخلص من القلق والمخاوف بصورة عامة، وكل قيود تُفرض على حرية التعبير تزيد من الشعور بالخوف على المستوى الشعورى واللاشعور، ويدفع الإنسان إلى الإرهاق العصبى الذى يشكل حاجزا بينه وبين الآخرين[1].

والحقيقة أن رسل يحلل عصره تحليلاً واقعياً، فالعصر الحاضر يعانى من مشكلتين رئيستين الأولى الحروب وآثارها النفسية والاجتماعية، والثانية التقدم التكنولوچى ومشكلاته، وبذلك يعبر عن سمة أصيلة للفلسفة المعاصرة تتمثل فى سعيها لأن يستعيد الإنسان حريته، وينضم رسل إلى الوجوديين فى محاولة استعادة الإنسان لهذه الحرية، وإن كان قد قرن الحرية بالسعادة فاعتبر أن القضاء على أسباب التعاسة يستلزم الحرية، إلا أن دراسته لأسباب الإرهاق العصبى الذى يعتبر سمة من سمات العصر، جاءت أقرب إلى التأملات منها إلى الدراسة العلمية. والوصفات العامة التى وضعها للتخلص من الإرهاق العصبى أقرب إلى التصور الذاتى البحت ولاتعتبر مضمونة النتائج. كذلك خلط رسل بين القلق والخوف وافترض أن أسباب الخوف هى أسباب القلق، فربما يستطيع الإنسان أن يتعامل مع أسباب الخوف بالبحث العقلى وبذلك يمكن التقليل من المخاوف، إلا أن القلق غالباً ما تكون أسبابه خافية ولايعلم الفرد سبباً له، كذلك إن كان رسل ربط ظهور الإرهاق العصبى بالتغيرات التى جاء بها العصر فإن الوسائل التى عرضها للتخلص من الإرهاق لن تجدى نفعاً طالما أن أسبابه المادية مازالت قائمة.

٤ - النرجسية وداء العظمة:

أ - التعريف والأسباب: إن عدم اعتدال الإنسان فى معاملة ذاته أو نظرته إليها، يعد سبباً رئيسياً فى تعاسته فمن سمات النفس البشرية حب الذات وحب السيطرة على الآخرين، وقد تؤدى هاتان السمتان إلى سعادة أو شقاء الفرد، وذلك حسب قدرته فى الانتباه إليهما، وعندما يزداد مقدار حب الإنسان لذاته يعتبر مصاباً بداء النرجسية ويعرف رسل "النرجسية بأنها عادة حب الإنسان لذاته ورغبته فى الحصول على إعجاب الآخرين، وإن كان ذلك أمراً طبيعيا، إلا أنها إذا زادت عن الحد تؤدى إلى شرور كثيرة، فقد يصل حب الإنسان لذاته إلى حد الغرور. الذى يجعله لايهتم إلا بنفسه ولايشعر بأى إشباع حقيقى من الحب. فالفنان المحب لذاته يصبح الفن بالنسبة له وسيلة من أجل ذاته

---

(١) Ibid., PP. 57 - 61.

ولاينظر إلى أى موضوع إلا فى علاقته بذاته، لذلك يواجه دائماً بخيبة الأمل والسحرية. كذلك الفرد الذى يسعى لأن يكون موضع إعجاب من الآخرين، غالباً ما يفشل فى تحقيق هدفه، وإذا ما تحقق له ذلك فإنه لن يشعر بالسعادة لأن غريزة الأنانية لاتشبع أبداً"[1]

وأما حب السيطرة على الآخرين فإنها تتحول إلى مايسمى داء العظمة، ويرى رسل "أن المصاب بداء العظمة يختلف عن النرجسى فى أنه يريد أن يكون ذا قوة وسلطان، ويود أن يهابه الناس بدلاً من أن يعجبوا به، ومعظم المجانين والرجال العظماء فى التاريخ مصابون بهذا الداء، وإن كان حب السلطة مثل الرغبة فى الإعجاب، يعتبر جانباً طبيعياً من جوانب الطبيعة البشرية، إلا أنه يتحول إلى مرض يؤسف عليه إذا زاد عن الحد، ويقترن دائماً بإحساس زائف للحقائق، والمصاب به يكون إما تعيساً أو أحمقاً، وإن كان المعتوه الذى يعتقد أنه على رأسه تاج، يُعتبر بمعنى ما سعيداً، فإن سعادته لايحسده أحد عليها، لقد كان الاسكندر الأكبر يعانى من هذا الداء، فعندما شعر بأنه أكبر الغزاة ووصل حداً كبيرة من الشهرة، قرر أنه إله. ولكن على الرغم من ادعائه الألوهية فإنه لم يكن سعيداً. لذلك ليس هناك فائدة من تنمية أحد الجوانب الطبيعية البشرية على حساب جوانبها الأخرى، أو النظر إلى كل ما هو فى العالم باعتباره مادة خام تسخر من أجل تحقيق الذات، وطالما أن الإنسان قدراته محددة فإن سعيه نحو السلطة والسيطرة لابد وأن يواجه بعقبات لن يستطيع التغلب عليها، وأمور لايكون فى مقدوره تحقيقها. إن حب السلطة والسيطرة على الرغم من أنهما قد يؤديان للسعادة، إلا أنهما إذا زادتا عن الحد، قد يؤديان إلى كارثة تصيب كلا من الفرد والمجتمع، فالحكام المصابون بداء العظمة يشعلون الحروب والعدوان، ويجعلون من شعوبهم وسائل لتحقيق أحلامهم، والمشكلة ان عشق السلطة مثل الغرور يرتبط دائماً بالحقائق الزائفة والتعاسة والحمق، فالحاكم المصاب بداء العظمة يتصور نفسه قوياً موهوباً، إلا أنه فى الحقيقة يخفى ضعفاً داخلياً، لذلك يشك فى كل من حوله ويتحول إلى طاغية، وإذا كان النرجسى يسعى للحصول على إعجاب الآخرين، ويكون حبه للآخرين من أجل ذاته، ولذلك يفشل فى أن يكون محبوباً، لأنه عندما يحصل على استحسان (إعجاب) يسعى للحصول على آخر، وهكذا إلى مالانهاية، فإن المصاب بداء العظمة يعانى نفس الإحساس، لأنه يرغب فى أن يزداد عظمة

---

(١) Ibid., PP. 16.

حتى تصور نفسه إلهاً، ولكنه ينهار عندما يكتشف زيف ما يتصوره من خلال ما يواجهه من عقبات لايسعه تخطيها. لذلك تهدم السلطة المطلقة الذات قبل أن تهدم العالم. ويعد ضرورياً للشعوب أن يخضع الحاكم لقيود برلمانية حزبية، لأنه إذا كان لدى كل إنسان إحساس بالعظمة والسيطرة ويمارسه من خلال عمله أو وظيفته ، فإن أخطر الوظائف، وظيفة الحاكم، لأنها تؤثر على مصير شعبه والدول المجاورة[١].

ب- طرق التخلص من النرجسية وداء العظمة: إن الإنسان معرض دائماً للإصابة بداء العظمة أو بداء النرجسية ولقد تناول علماء النفس تشخصيهما وطرق علاجهما، إلا أنهما قد تظهرا عند كثير من الأفراد الأسوياء، وتؤديا للشعور بالشقاء والتخلص من هذين الداءين يكون فى إنتباه الإنسان لذاته، ويرى رسل "ضرورة التقليل من الاستغراق الذاتى لأنه إذا حصر الإنسان نفسه فى نطاق اهتماماته الذاتية، وحاول تسخير الأشياء والآخرين لخدمتها وتحقيق أهدافها فسوف يحتقر ذاته إذا كان الفشل نصيبه، وقد يدفعه احتقاره لذاته إلى الانتحار، لذلك لابد أن يحاول الإنسان أن يراقب ذاته، ويكشف عن رغباته، ويدرك منها تلك التى يمكن إشباعها، ويعترف لنفسه بجوانب النقص ويكتسب عادة التفكير فى الرغبات التى يمكن تحقيقها، وأنواع المعارف التى يمكن الحصول عليها. ولكن يقلل الفرد من استغراقه الذاتى لابد وأن يوجهه تفكيره نحو الاهتمام بالعالم الخارجى والموضوعات "غير الشخصية" وبأنواع المعارف المختلفة. كذلك لابد من العناية والاهتمام بهؤلاء الأفراد الذين نشعر نحوهم بالمحبة. حقيقة قد يشعر الإنسان بالألم نتيجة لما يقع فى العالم من حروب ومجاعات، أو من استحالة بعض جوانب المعرفة، أو لموت بعض الأصدقاء، ولكن هذه الآلام لن تحطم الذات الإنسانية، وليست مثل تلك التى تنتج من إحساس الإنسان بالفشل، أو من احتقاره لذاته، والحقيقة أن أى اهتمام بموضوع خارجى يظل قائماً طالما أن الموضوع موجود، على العكس من الاهتمام بالذات، فليس له أى قيمة خارجية فى الواقع، ولا يصاحبه أى نشاط فعال، ولذلك يعد الاهتمام بالموضوعات الخارجية أو ذات الصبغة "غير الشخصية" الطريق الوحيد لسعادة هؤلاء الذين يهتمون بأنفسهم إلى حد كبير[٢].

---

(١) Ibid., PP. 17 - 18.

(٢) Ibid., PP. 14 - 15.

والحقيقة أن رسل اعتبر حب السيطرة من الغرائز الفطرية. لذلك لم يتناول الأسباب الحضارية والعوامل الاجتماعية التى قد تؤدى إلى إصابة الفرد بداءى العظمة والنرجسية، واكتفى بتحليل صور كل منهما وتأثيرهما على سعادة الفرد بوصف لشخصية الفرد المصاب بهما. وإن كان بعض الباحثين من أمثال "ماكدوجال"، "والفرد آدلر" قد اعتبروا حب السيطرة من الغرائز الفطرية. فيذهب "ألفرد آدلر" على وجه خاص إلى اعتبار حب السيطرة وإقرار الذات من أقوى وأهم الدوافع الإنسانية، واعتبرها الغريزة الرئيسية التى توجه حياة الإنسان وتؤثر فى الشخصية والسلوك. إلا أن الاعتقاد بأن حب السيطرة من الغرائز الفطرية، يعد اعتقاد خاطئ لاتبرره الدراسات الانثروبولوچية الحديثة، حيث أثبتت هذه الدراسات أن هناك بعض المجتمعات لايظهر فيها دافع السيطرة بوضوح، مثل قبائل "الأرابشى" التى تقطن غينيا الجديدة، كذلك قبائل الهند المعروفة باسم "زونى". ويتضح من هذه الدراسات الأنثروبولوچية ان دافع السيطرة إنما هو نتيجة للحضارة وللعوامل الاجتماعية التى ينشأ بها الأطفال، فإذا ما شجعت العوامل الاجتماعية والبيئة الحضارية التى ينشأ بها الفرد التعاون والمسالمة والوداعة اكتسب الأفراد هذه الاتجاهات، أما إذا كانت تؤكد على مظاهر القوة والمنافسة وحب السيطرة وإثبات الذات، فإن الأفراد يميلون فى معاملاتهم نحو السيطرة وتأكيد ذواتهم. كذلك يكون للتجارب التى يمر بها الفرد فى طفولته تأثير فى تكوين اتجاهاته، لأنه إذا ما شعر الطفل أن لجوءه للعدوان والتنافس والسيطرة مفيد فى إشباع حاجاته، فإنه يميل فى كبره إلى اللالتجاء إلى مثل هذه الأساليب التى ثبت نجاحها فى الماضى[1]. إن التخلص من حب السيطرة والأنانية وبالتالى من الإصابة بداءى العظمة والنرجسية يمكن أن يتم من خلال التربية. فإذا ما تحقق ذلك لن يضطر الإنسان إلى المجاهدة ويكون فى مأمن من الإصابة بهما.

٥ - تعقيب:

١ - من الواضح أن تلك الحالات النفسية التى تؤثر على الصحة النفسية للفرد تشكل موضوعات رئيسية فى علم النفس، سواء بالنسبة لأسبابها أو طرق علاجها، إلا أن رسل لم يكن ملتزما تماماً بنظريات علم النفس فى دراستها، لذلك جاءت آراؤه أقرب إلى

---

(١) د. عثمان لبيب فراج، أضواء على الشخصية والصحة العقلية، ص ٢٢٢، مكتبة النهضة المصرية، القاهرة، ١٩٦٥

التحليلات الفلسفية، وإن كان قد اعتبر ما توفر لديه من نظريات مقدمات ينطلق منها فى تحليلاته، لذلك ربط بين صحة الفرد النفسية وشعوره بالسعادة. ثم حلل الأمراض التى قد تؤثر على الصحة النفسية وانتهى إلى أنها ترد فى حقيقتها إلى المعتقدات الأخلاقية التقليدية التى تبثها التربية فى النشء وإلى القيود التى تفرض على حرية الإنسان، فالجهل والخرافة تشكل قيوداً على الفكر المنطقى والمعتقدات الأخلاقية تشكل قيوداً على حرية الفعل، والرغبات والأهواء تشكل تحكماً فى فكر وسلوك الإنسان. لذلك تحرر الفرد من المعتقدات الأخلاقية التى مازالت قائمة رغم عدم صحة نتائجها، ولجوء الفرد إلى العقل والتفكير المنطقى، وتحرر الفرد من ذاته، تعد أموراً أساسية لتمتع الإنسان بالصحة النفسية وبالتالى إحساسه بالسعادة. فالسعادة فى التحرر من القيود الاجتماعية والأخلاقية والنفسية.

٢ - يعطى رسل للعقل أهمية فى تحقيق الإنسان لصحته النفسية وبالتالى لسعادته، وإن كان لايجعل العقل منبعاً للسعادة أو الإحساس بها، إنما يجعل منه وسيلة لتحقيقها، فالتخلص من الشعور بالذنب وهوس الاضطهاد والإرهاق العصبى وداء العظمة يكون بالاعتماد على العقل، ويقصد بالعقل هنا التفكير المنطقى أو التفكير العلمى بمعنى أوسع. فإخضاع العقائد الأخلاقية الموروثة للبحث العقلى يخلص الإنسان من الشعور بالذنب، والتنظيم العقلى للمشكلات يقضى على الإرهاق العصبى، والدراسة العقلية البحتة لقدرات الفرد ورغباته ومعرفة محتويات اللاشعور تخلص الفرد من هوس الاضطهاد وداء العظمة، ولكن على الرغم من إمكانية الشك فى مدى نجاح العقل فى تحقيق ذلك. هل يمكن التأكيد بأن إذا ما سلك الإنسان حسب ما يقضى به العقل يجعله فى مأمن من الشقاء؟ الحقيقة أن اللجوء إلى المنطق العقلى البحت قد يكون سبباً فى تعاسة وشقاء الإنسان، وقد يكون على حساب العاطفة. وإن كان رسل قد افترض أن العقل لايتعارض مع العواطف النبيلة وأنه يقف حائلاً فقط أمام الأهواء المدمرة، إلا أن ذلك لن يحسم صراعاً حقيقياً بين العقل والعاطفة، فقد يشعر الإنسان بالشقاء أحياناً إذا ما غلب التفكير المنطقى على عاطفته.

٣ - يعتقد رسل أن المعتقدات الأخلاقية الموروثة تعد سبباً رئيسياً لخلل صحة الفرد النفسية، لذلك يطالب بأن يخضعها الفرد للتنقية تحت مجهر العقل فيبقى منها ما يتقبله العقل. ويتخلص من المعتقدات التى أصبحت لا تحقق نتائج فى الواقع أو تتناقض معه أو

كان مصدرها الخرافة، ولايمكن إقامة الحجج والبراهين العقلية عليها، ويجب أن يخط الإنسان لنفسه مبادئ أخلاقية تستند على العقل والمنطق. إلا أن ذلك سوف يؤدى إلى تحلل معنى الإلزام الخلقى والتخلى عن العقائد الأخلاقية الموروثة. ولئن كان رسل لايرى أن ذلك سوف يؤدى إلى اللاأخلاقية، إلا أنه فى الحقيقية إذا أعطى كل إنسان لنفسه الحق فى سن مبادئه الأخلاقية. سوف يؤدى ذلك إلى تحلل الإلزام الخلقى، لأنه ليس فى مقدور كل فرد فحص عقائده الأخلاقية الموروثة، أو بحث علاقة كل معتقد بالآخر، كذلك ليس فى مقدور كل إنسان أن يخط لنفسه مبادئه الأخلاقية أو حساب النتائج المترتبة على هذا أو ذاك المبدأ، بل لما كان هناك حاجة للمصلحين أو لفلاسفة الأخلاق، كذلك قد يتوقف الإنسان عند حد نقد الأخلاق الموروثة ولايستطع سن مبادئ أخلاقية جديدة. الأمر الذى يؤدى إلى التحلل من الإلزام، وإن كان رسل قد طالب بهذا الموقف تأكيداً لحرية الإنسان وتحقيقاً لسعادته، إلا أن ذلك قد يؤدى إلى التنافر الاجتماعى والشقاء.

الفصل الثانى
الانفعالات والعواطف

إن انفعالات الإنسان وأهوائه وعواطفه عوامل لها دورها الأساسى فى توفير الإحساس بالسعادة أو بالتعاسة، ونلاحظ أن كثيرا من الناس يفقدون إحساسهم بالسعادة نتيجة لانفعالات متأصلة فى اللاشعور، أو لأنماط خاطئة من السلوك أو لعدم ثقتهم فى الحب ونظرة متشائمة للعالم والآخرين، والمشكلة الرئيسية أن كثيراً من الأفراد يعتبرون أن هذه المشاعر من طبائع البشر وأنها أمور ضرورية للنشاط. وقد يدعى البعض أن من الحكمة أن يكون الإنسان تعيساً، إلا أن تحليل هذه الأنماط السلوكية وتلك الانفعالات غالباً ما يؤكد أنها قد تكونت بفعل عوامل نفسية نتجت من اتباع أساليب تربوية خاطئة، أو بفعل عوامل اجتماعية واقتصادية ودينية، لذلك يعد من الضرورى بحث هذه الانفعالات والعواطف ومعرفة أسبابها ووسائل التخلص منها، طالما أن لها دوراً أساسياً فى سعادة الإنسان أو شقائه.

١ - الحسد :

أ - تعريفه وأسبابه : يعتبر الحسد من الانفعالات المتأصلة فى الإنسان حيث يقارن الإنسان دائماً نفسه بالآخرين. لذلك يرتبط الحسد دائماً بانفعال الغيرة وتمنى زوال النعمة للآخرين، ويرى رسل " ان الحسد يعتبر من الأهواء المتأصلة فى الإنسان، وأكثرها انتشاراً ويظهر واضحاً عند الأطفال عنه لدى الكبار، كما نلاحظ انتشار الحسد بين الطبقات الغنية والطبقات الفقيرة، وإن كان ينتشر بصورة أكبر بين أفراد الطبقة الفقيرة، ويمكن القول بأن الحسد كان من الأسباب الرئيسية التى أدت إلى انتشار الحركة الديمقراطية فى اليونان، كذلك أن كانت التغيرات الكبيرة التى تحدث فى المجتمعات لها من النظريات ما يبررها، إلا أن مثل هذه النظريات الديمقراطية تستمد قوتها الدافعة من الحسد، كما نلاحظ انتشار الحسد بين النساء والرجال، فالمرأة تحسد الرجل دائماً، والنساء يحسد بعضهن البعض، لأن حب الفضائح ما هو إلا مظهر من مظاهر الحسد، والرجال يحسدون بعضهم البعض خاصة أفراد المهنة الواحدة. والحقيقة اننا نحسد دائماً كل الذين لديهم القدرة على السلوك بصورة تتنافى مع المبادئ الأخلاقية والمثل العليا، ونعتبر

معاقبتهم مظهرا من مظاهر الفضيلة. وعلى ذلك نلاحظ أن الإنسان بدلاً من استمتاعه باللذة مما يمتلك، يستشعر الألم مما يمتلك الآخرين. فالحسد يظهر دائماً من خلال المقارنة التى يجريها الفرد مع من حوله[١].

أما بالنسبة لأسباب الحسد فإن رسل يرى ان التربية تلعب دوراً رئيسياً فى تأصيل الحسد فى النفوس، حيث يقول " إن الطفل الذى يشعر أن أشقاءه مفضلون عليه، يكتسب عادة الحسد، وفى كبره يبحث عن الظلم الذى كان أحد ضحاياه، ويدرك صوره وإذا لم يجدها يتخيلها، لذلك يفقد أى إحساس بالسعادة ويعتقد أن أحداً لايكن له حباً وبعد فترة يصبح هذا الاعتقاد أمراً حقيقياً، يظهر الحسد فى الطفولة بسبب هؤلاء الآباء الذين لايمنحون أبنائهم حناناً كافياً، مما يجعل الطفل يحسد الأطفال الآخرين ويكن لهم ولوالديه الكراهية. كذلك نظام التربية الذى يؤكد على أهمية التواضع الزائد عن الحد ويعتبره من الفضائل، يؤدى لا محالة إلى زيادة انتشار الحسد، لأن الشخص المتواضع تقل ثقته فى نفسه وغالباً لا يجرؤ على القيام بأفعال يكون فى مقدوره القيام بها، لذلك لايشعر الشخص المتواضع بقدره الحقيقى، فيميل إلى الحسد ثم إلى التعاسة بشكل عام[٢].

كذلك يكون للنظم الاجتماعية دور خطير فى اكتساب عادة الحسد وانتشاره ويظن رسل "ان الحسد مرتبط بالمنافسة، وقديما لم يكن هناك حسد بين الفقراء والأغنياء بقدر ما كان بين الفقراء أنفسهم. لأن التفرقة كان ينظر إليها، على أنها وجدت لحكمة إلهية، ومع انتشار الديمقراطية والاشتراكية زادت نسبة الحسد فالشعوب الفقيرة تحسد الشعوب الغنية، والمرأة تحسد الرجل ويحسد الفقراء الأغنياء، وعلى الرغم من أن الحسد قد يؤدى إلى تحقيق المساواة والعدالة الاجتماعية، إلا أن تلك العدالة والمساواة اللتان تظهران نتيجة للحسد، تعد أسوأ أنواع العدالة، لأنها سوف تقوم على مبدأ التقليل من متع الأغنياء والمحظوظين بدلاً من رفع مستوى الفقراء والتعساء، ولأن الأهواء التى تفسد وتدمر الذات الإنسانية هى نفسها التى تفسد الحياة العامة فإن على الذين يريدون صلاح المجتمع أن يبحثوا عن وسائل أخرى غير الحسد[٣]. كما يعتبر رسل "الحسد مرتبط بعدم إشباع

---

(١) B. Russell : The Conquest Of Happiness, PP. 64-66.

(٢) Ibid., PP. 66-70.

(٣) Ibid., PP. 71.

الحاجات الضرورية للإنسان وبالعلاقة الجنسية وبغرائز الإنسان الطبيعية. فالرجل المشبع من الناحية الجنسية، يكون قليل الحسد تجاه الآخرين. لذا يمكن القول بان إشباع الحاجات الضرورية للإنسان تقلل الحسد، والواقع أن وسائل الإعلام تلعب دوراً هاماً فى نشر الحسد والكراهية لأنها تجعل الفرد يشعر بأن هناك أشياء كثيرة تنقصه ولايعرف كيف يحصل عليها[1].

ب - التخلص من الحسد: إن الأسباب الرئيسية للحسد الذى يشعر به الفرد تجاه الآخرين، يعود بعضها إلى نظام التربية والنظم الاجتماعية والبعض الآخر يعود إلى نفسية الفرد وشعوره بالنقص عند مقارنة نفسه مع الآخرين، ويرى رسل "ان التخلص من الحسد أو التقليل منه، يعتمد بالدرجة الأولى على التقليل من أسبابه سواء فى نطاق الأسرة أو على مستوى المجتمع ككل ، وأن يغير الإنسان نظرته للحياة ويتعود أن يستمتع بما يمتلك. كما يجب البعد عن إجراء المقارنات المستمرة بينه وبين الآخرين، وأن يستمتع باللذات التى يصادفها ويقوم بالأعمال التى تتوجب عليه القيام بها، وأن يتجنب المقارنة بهؤلاء الذين يعتقد أنهم أكثر حظاً منه لأن اعتقاده قد يكون زائفاً، وإن كان من أسباب انتشار الحسد إحساس المواطن بالظلم الاجتماعى وعدم المساواة، فإن إصلاح المجتمع يؤدى إلى التقليل من الحسد، ويتم ذلك الإصلاح بالسماح للفرد بالارتقاء، والتميز حسب قدراته ومواهبه. أما على مستوى الفرد يكمن علاج الحسد فى التنظيم العقلى واكتساب عادة التفكير فى تلك الأشياء التى تؤدى منفعة أو نتائج، كذلك يجب أن يكتسب الفرد عادة الإعجاب، وعلى كل من يرغب فى زيادة مقدار السعادة الإنسانية أن يقلل من الحسد ويزيد من الإعجاب[2].

والحقيقة أن رسل قد عرف الحسد من خلال استقراء لمظاهره فى الحياة، ولم يعتمد على النصائح الأخلاقية والدينية التى تنبذ الحسد، أو على تعريفات علماء النفس، إنما أجرى نوعاً من الاستقراء لنماذج من مسالك الأفراد فى الحياة اليومية، ومن الواضح أنه اعتبر الحسد ظاهرة اجتماعية يعانى منها الإنسان بصورة عامة، لذلك لم يحدد المقصود بمعنى الحسد واستند على وضوح معناه. كذلك اعتمد فى بيان مظاهر الحسد على مبدأ المقارنة. فالإنسان يعانى من الحسد من خلال مقارنةوضعه بغيره، إلا أن الإنسان قد يقارن

---

(١) Ibid., PP. 72 -73.

(٢) Ibid., PP.71-73.

نفسه بالآخرين وليس بالضرورة مكتسباً للحسد، لأن المقارنة قد تكون دافعاً له للاتجاه نحو وضع أفضل، كذلك من الملاحظ أن رسل قد وحد بين انفعال الغيرة وانفعال الحسد، وإن كان هناك ارتباط بين الانفعالين، إلا أن انفعال الغيرة يعنى التمنى أو الرغبة فى امتلاك ما لدى الآخرين. أما الحسد انفعال يجمع بين تمنى امتلاك ما لدى الآخرين وتمنى زوال النعمة عنهم ويرتبط بالأهواء المدمرة. لذلك يجب التميز بين الانفعالين كما يقضى التحليل.

كذلك ربط رسل بين انفعال الحسد والنظم الديمقراطية والاشتراكية، فاعتبر الحسد دافعاً للديمقراطية والاشتراكية، وجعل هذه النظم مسئولة أيضاً عن انتشاره، إلا أن هذا الربط ليس جائزا فى كل الأحوال فليس بالضرورة أن تكون رغبة الإنسان فى تحقيق المساواة نابعة من الحسد، لأن شعور الإنسان بالمساواة والعدل يعد شعوراً طبيعياً وليس بالضرورة أن يرتبط مثل هذا الشعور بالرغبة فى تقليل متع الآخرين. إن عدم عدالة النظم الاجتماعية تدفع الإنسان إلى الثورة للمطالبة بالمساواة، وهذا أمر طبيعى، أما ربط مثل هذه الثورة بالحسد أو الحقد فليس أمراً أكيداً، وربما قال رسل بمثل هذا الربط لنقد النظم الاشتراكية التى تقلل من نصيب الأغنياء. إلا أن تحقيق المساواة يتطلب فى معظم الأحيان رد ما قد سلب بطريق غير مشروع، وذلك أمر لايكون دافعه الحسد.

أما بالنسبة لكيفية التخلص من الحسد فمن الواضح أن رسل يدعو لنظره سلبية من أجل تحقيق الفرد لسعادته، فالإنسان يجب أن يقنع بما لديه ويستمتع بما يصادفه، على اعتبار أن النظم الاجتماعية لابد أن تحقق المساواة والعدل والحقيقة ان مثل هذه الدعوة تعتمد على كثير من التفاؤل لأن الصراع لاينقطع بين مايرغبه الفرد ومايفرضه عليه المجتمع، ومهما كانت عدالة النظام الاجتماعى فإنها لن ترضى كل الأفراد.

٢ - الملل والإثارة:

أ - التعريف والأسباب: يعتبر الإحساس بالملل الزائد عن الحد والإثارة المستمرة، من مصادر إحساس الإنسان بالتعاسة، والملل ظاهرة نفسية نلمسها فى حياتنا اليومية، ويرى رسل "أن علماء النفس غالباً ما يردون الشعور بالملل إلى وقت الفراغ، إلا أن الشعور بالملل ليس مرتبطاً بالضرورة بوقت الفراغ، فالإنسان قد يشعر بالملل من الروتين اليومى والرتابة فى حياته والتكرار. ويعرف الملل بأن تلك الحالة التى يشعر فيها الإنسان بأنه لاجديد تحت الشمس. وعندما يتسرب الملل إلى حياة الإنسان، فإنه يفقد كل

مباهجها ويصاب بالتعاسة. والواقع أن الشعور بالملل لايعتبر من الغرائز الطبيعية الإنسانية، بل يعتبر مرضا من أمراض الحضارة التى تصيب الإنسان، لأن الإنسان المتحضر يفقد اتصاله المباشر بالطبيعة ومثيراتها، فالحيوان قد يشعر بالملل فى الأسر، ولكنه لايشعر به فى الطبيعة لأنه يتحرك ويبحث عن طعامه[١].

أما بالنسبة لأسباب الشعور بالملل، يعتقد رسل "أن وقت الفراغ قد لايكون السبب المباشر للشعور بالملل، وإنما يكون فى غياب الدافع أو الهدف الذى يهدف الإنسان من سلوكه إشباعه، فإنسان العصر يمارس عمله وبشكل روتينى وقد غاب عنه الدافع الحقيقى الذى يدفعه للقيام بهذا العمل، بينما قديما كان الإنسان يشعر بالدافع بطريقة مباشرة، فعندما كان يذهب للبحث عن الطعام ويحصل عليه يشعر بالسعادة، لأن حصوله على الطعام يشبع دافع الجوع والحاجة إلى الشعور بالأمن، طالما أنه ضمن طعامه ليوم قادم. وإن كان العمل الذى يمارسه الإنسان المعاصر يخدم ويشبع نفس الدوافع، إلا أنه لايفكر مطلقاً فى أن سبب ذهابه للعمل هو إشباع لدافع الجوع، كما أن من أسباب الملل المباشرة. لجوء الفرد للمقارنة المستمرة بين الحاضر والماضى، وغالباً ما تحدث تلك المقارنة، إذا كان حاضر الفرد خالياً من الأحداث والمغامرات، أو أنه كان قد عاش ظروفاً أفضل حدثت فى الماضى إلا أنها مازالت تفرض نفسها على الخيال. ويزداد شعور الإنسان بالملل عندما لاتستغل طاقاته بصورة كافية، والحقيقة ان عدم مواجهة الإنسان للاحداث تجعله عرضه للشعور بالملل. فالإنسان لايشعر بالملل فى لحظه إعدامه أو عند محاولة الهروب من الأعداء. وعلى الرغم من أن تلك الأحداث لاتؤدى إلى السعادة فإن مجرد وجودها أيضاً لايؤدى إلى الشعور بالملل[٢].

وبالرغم من أن الإثارة تعتبر على النقيض من الملل، إلا أنها تعتبر سبباً للشعور بالتعاسة مثل الملل تماماً، ويرى رسل "أن الرغبة فى الشعور بالإثارة تقضى على كثير من أسباب السعادة. وتعرف الإثارة بأنها شعور الفرد برغبة جارفة نحو الأحداث وكثرة التغيير، ومن الملاحظ أن الرغبة فى الشعور بالإثارة تكون أكثر انتشاراً لدى الذكور عنها لدى الإناث، وقديما لم يكن الإنسان يشعر بأنه فى حاجة للإثارة. لأن كل شىء فى حياته

---

(١) Ibid., P. 44

(٢) Ibid., PP. 44-45

به إثارة - الصيد والحب والغزل - ولكن مع حلول عصر الزراعة بدأ ظهور الشعور بالملل وإن كان عصر الآلة قد أدى إلى قلة الملل وأننا حقاً أقل شعوراً بالملل من أسلافنا، إلا أننا أكثر خوفاً من الإصابة به[1].

ب - طرق التخلص من الملل والإثارة:

يعتبر الاعتدال فى التوفيق بين الملل والإثارة من مقومات السعادة فالإنسان فى حاجة إلى بعض الملل وبعض الإثارة، لأن الثبات على أيهما يجعل الإنسان يفقد التمتع بالحياة وبالتالى يقل نصيبه من السعادة، يقول "رسل يمكن القضاء على الملل باحتراف ممارسة الأعمال التى تؤدى إلى الشعور بالإثارة وبالاتجاه نحو وسائل متعددة للترفيه والتسلية، كما يمكن تقليل الملل لدى الشباب من خلال منحهم الحرية الكاملة. إن الرغبة فى الهروب من الملل أمر طبيعى فى الإنسان، فالبدائيون عندما ذاقوا الخمر على يد الرجل الأبيض، أدمنوه للهروب من الملل، كذلك يمكن اعتبار الحروب والاضطهاد العنصرى والمذاج كلها صور للهروب من الملل وحتى المشاجرة مع الجيران لذلك يعتبر الشعور بالملل مشكلة أخلاقية، طالما أن نصف ذنوب الإنسان ترتكب بسببه"[2].

إلا أن رسل يعود ويقرر أن الملل ليس كله شرا، لأن الحياة تحتاج لبعض الملل، فهناك نوعان منه، أحدهما مثمر والآخر مدمر، النوع المثمر منه هو الذى يعانى منه الإنسان ولكنه لايضطر إلى اللجوء لتعاطى المخدرات للهروب منه. أما النوع الآخر فهو ما يجعل الفرد يفقد قدرته على القيام بأى نشاط حيوى. كذلك بالنسبة للإثارة إذا ما تعود الإنسان على ممارسة الإثارة القوية وبشكل دائم فإنه يفقد الإحساس بها، وقد يأتى يوم تحرم فيه عليه. فإن قلة الإثارة تؤدى إلى الشعور بالملل والمرض وكثرتها تسبب الإرهاق والإجهاد. إن كمية محدودة من الملل تعد ضرورية للسعادة. فحياة معظم الفلاسفة العظماء أمثال "سقراط وكانط" لم يكن بها إلا قدر ضئيل من الإثارة. وما زال الأدب الكلاسيكى الممل يحظى بالاهتمام ويحقق الامتناع. كما يعتبر التعود على الهدوء أمراً ضرورياً للعمل الفكرى الجاد. لذلك يجب تعلم الأطفال القدرة على تحمل الملل، فإن التعود على الإثارة مثل التعود على الخمور والمخدرات يصعب التخلص منه، والطفل يحتاج للرتابة لكى

---

(١) Ibid., P. 46

(٢) Ibid., PP 48-50

تظهر قدراته، وإن كانت الرتابة ليست مهمة فى حد ذاتها، إلا أنها تعد أساساً للعمل الجيد. فالطفل مثل النبات يتأثر بأى تغير فى التربة أو فى البيئة الطبيعية. إن الإنسان مخلوق أرضى والأرض نظامها بطىء، لذلك الالتصاق بنظام الطبيعية يعد عنصراً ضرورياً للمتعة[1].

والواقع ان اعتبار الملل ومحاولة الهروب منه سبب فى الحروب والمذابح والاضطهاد العنصرى، يطمس الأسباب الحقيقية والموضوعية لهذه الشرور، ولايمكن الإدعاء بأن الهروب من الملل كان سبباً للحربين العالميتين الأولى والثانية. كذلك من الواضح أن رسل يحاول تعميم ما يدور داخل الفرد من مشاعر وانفعالات على المجتمعات بأسرها، لذلك يتصور أن ماينطبق على الفرد ينطبق على المجتمع بأثره ومثل هذا التصور ليس مطابقاً بالضرورة للواقع.

٣ - المنافسة:

أ - تعريفها وأسبابها : هناك من العادات التى يمارسها الإنسان فى حياته اليومية تكون من الأسباب الرئيسية لشقائه، لأنه غالباً ما يمارسها من منطلق المحاكاة والتقليد دون أن يفكر فى تحليلها أو فحصها، لذلك يستمر فى ممارستها دون أن يدرك مدى ما تسببه من انتقاص لسعادته. والمنافسة من العادات الخاطئة التى يؤديها الإنسان دون إدراك لمخاطرها: يقول رسل "إن كانت المنافسة قد ظهرت قديماً بسبب الصراع من أجل البقاء والرغبة فى استمرار الحياة، إلا أنها أصبحت فى عصرنا صراعاً من أجل الحصول على المال والنجاح، وأصبح ما يخافه الأفراد عند دخولهم فى الصراع لايكمن فى أنهم سوف لايجدوا طعامهم فى اليوم التالى، إنما فى فشلهم فى التفوق على جيرانهم، ويظل الإنسان يصارع على الرغم من توفر ما يصارع من أجله. وعلى الرغم من توفر سبل المعيشة ويسرها للفرد، إلا أننا نجده مازال يقضى يومه فى العمل والإرهاق، ويصبح جاهلاً بأمور أسرته، ولايرى الربيع إلا من خلال تأثيره على السوق والأسعار، وينظر للدول التى يزورها نظرة تجارية مملة، ويعتبر الكتب مضيعة للوقت والموسيقى رفاهية، ومع مرور السنين تصبح حياته أكثر عزلة وانفصالاً عن الحياة الاجتماعية لأن دين رجل الأعمال الحصول على نقود

---

(١) Ibid., PP. 51-52

أكثر. فالمنافسة لم تعد بسبب الحصول على الرزق أو طلب للمساواة، إنما طلباً للنجاح المادى[١].

إن تعود الإنسان على التنافس له آثاره الضارة على سعادته، لأن الفشل فى المنافسة غالباً ما يولد الحقد والحسد للآخرين والإحساس بالذنب نتيجة للفشل. بل قد يشعر الفائز فى الصراع بنظرة احتقار للمنهزم ويرى رسل "أن المنافسة تؤثر على مجالات الحياة المختلفة تأثيراً سيئاً، لأن من يجعل النجاح المادى هدفه الوحيد فى الحياة يفقد كثيراً من معانيها ومتعها، وكون المعيار المادى هو المقياس الوحيد للنجاح، يجعل الفرد لايهتم بالتعليم الذى لايحقق ربحاً مادياً، ويفقد الفن الجيد قيمته، وبدلاً من الإعجاب به، يتنافس الفرد على اقتنائه، وفى النهاية إذا ما حصل الإنسان على المال الكافى وحقق النجاح المادى وانتفى عنصر المنافسة، فإنه سوف يقع فريسة الملل، ألا وهو الثمن الباهظ، كما تكمن خطورة اكتساب عادة التنافس فى حياتنا اليومية، فى أن المنافسة قد تطغى على جوانب العقل المختلفة، كأن تصبح القراءة مثلاً مجرد سلوك تنافسى ولايهتم بالكيف، وإنما يهتم بالكم والتظاهر والمباهاة من أجل إشباع الشعور بالتفوق على الآخرين[٢].

ب- طرق التخلص من المنافسة: لكى نتخلص من عادة التنافس لابد من تغير فلسفتنا فى الحياة ونظرتنا للنجاح المادى، حيث يرى رسل "أن علاج التنافس يكون فى التخلص من الفلسفة القائم عليها، وإن كان الشعور بالنجاح يلعب دوراً هاماً فى استمتاع الإنسان بحياته، إلا أنه يجب أن يحدد ما هو نوع النجاح المطلوب، وماذا بعد النجاح؟ كذلك إن كان المال وسيلة تزيد إلى حد ما سعادة الإنسان لأنه يوفر الحاجات الضرورة، إلا أنه ليس غاية فى ذاته وليس هو المعيار الوحيد للسعادة، فلابد أن نعتبر المال وسيلة للحصول على وقت الفراغ ولإشباع الحاجة إلى الشعور بالأمن، يجب أن نغير فلسفة حياتنا، تلك الفلسفة التى تقوم على المنافسة واحترام المنتصر لأنه لما كانت المنافسة تقوم على الإرادة والبعد عن استخدام العقل، وذلك ما كانت الأخلاق التقليدية تشجع عليه قديماً، فإنها جعلت الهدف الوحيد للحياة تمثل فى الحصول على السلطان والقوة. ولقد أدى ذلك إلى زيادة تعاسة الإنسان وتقليل رغبته فى الإنجاب وزيادة الإرهاق العصبى وانتشار ظاهرة الهروب بأشكالها المختلفة. فقد تقضى المنافسة على الجنس البشرى كله.

---

(١) Ibid., P. 35

(٢) Ibid., P.41

لذلك يجب أن نعيد وضع فلسفة جديدة للحياة، تقوم على الاعتراف بأن المتع الهادئة العاقلة جزء ضرورى[١].

والحقيقة باعتبار المنافسة عادة من عادات الإنسان، لايمكن التأكيد بأنها سبب رئيسى لتعاسة الإنسان بل يمكن اعتبارها سبباً للتعاسة والسعادة. فشعور الإنسان بالنجاح يعد عنصراً ضرورياً لسعادته، كذلك شعوره بالفشل والإحباط إذا لم يقترن بالحسد والحقد، قد يكون دافعاً له ، لأنه يعيد تقييم سلوكه وأهدافه ويحاول استبدالها بأهداف أخرى. لذلك فإن محاولة القضاء على المنافسة قد تكون مضارها أكثر من منفعتها. لأن فى غياب التنافس بقدر معقول تصبح حياة الإنسان نهباً للشعور بالملل، وتقضى على رغبة الإنسان فى المساواة. أو فى الوصول إلى الأفضل والتفوق، فقد أكد كثير من فلاسفة التربية ان الاعتماد على المنافسة بقدر معقول وفى مجالات محددة يزيد من عملية التعلم. وتختلف المنافسة عن دافع المقاتلة، فالمنافسة تعنى الوصول إلى مرتبة الخصم أو أعلى منها دون إلحاق ضرر به. أما المقاتلة تؤدى إلى الإضرار بالخصم وإهلاكه. لذلك تعتبر المنافسة من أقوى الدوافع للتعلم إذ أحسن المربى استخدامها، ويمكن تجنب ارتباط المنافسة بالحقد والحسد، بأن تكون عامة وجماعية، وليس هناك ضرر فى أن تكون بين مجتمع وآخر، أو جماعة وأخرى، وكما يقول "روسو" أن المنافسة مفيدة إذا أجاد المربى استخدامها[٢]. وكما يرى وليم جيمس "أن المنافسة باعث نفسى يدفع الشخص ليتساوى مع غيره أو يفوقه، فإن تسعة أعشار العمل تتم بواسطتها[٣]، كذلك ربط رسل المنافسة بالنجاح أو بالصراع من أجل النجاح، وفى ذلك إهمال لجوانب النجاح الأخرى مثل النجاح فى العلم والفن والتنافس الرياضى، وإن كان التنافس من أجل النجاح المادى يسيطر على فترة ما من حضارة شعب من الشعوب، أو فترة زمنية من عمر الفرد، إلا أنه قد يتحول إلى أمور أخرى فى الحياة بعد تحقيق النجاح المادى، وإذا ما استمرت رغبة الإنسان فى التنافس بقدر من الاعتدال والتوازن فقد تعد سبباً لسعادته.

---

(١) Ibid., PP. 41-43

(٢) د . محمد عطية الإبراشى، علم النفس التربوى، ص ١٩٤، دار الكاتب العربى للطباعة والنشر، ١٩٦٦

(٢) المرجع السابق نفسه ص ١٩٥.

٤ - النظرة للعالم :

إن نظرة الإنسان للكون بصورة عامة والعالم من حوله قد تؤدى به إلى الشعور بالسعادة أو بالتعاسة. وهناك ثلاث نظرات للعالم يمكن عدها سبباً رئيسياً لتعاسة الإنسان وهى :

أ - النظرة العاطفية : هناك من ينظرون للكون نظرة عاطفية بعيدة عن العقل، فبعضهم يرى فى الرتابة وتكرار الأحداث سبباً للتعاسة، والبعض الآخر يرى العكس " أى أن التعاسة سببها التغير الدائم. يقول رسل " هناك من الفلاسفة من يرون فى التغيير الدائم فى أحداث الكون سبباً كافياً لتعاسة الإنسان فليس هناك متعة يمكن أن يقدمها لنا العالم أفضل من زواله، وأن علينا أن نمدح الموتى لأنهم أفضل حظاً من هؤلاء الذين مازالوا أحياء. ومثل هذه النظرات ترى فى تغير أحداث العالم والمستقبل المجهول للإنسان أمراً كافياً لعدم الشعور بالسعادة، ثم تأتى نظرة أخرى ترى التعاسة فى رتابة أحداث الكون وسيره على وتيرة واحدة. فالأنهار تصب فى البحار والبحار لاتمتلىء ولاجديد تحت الشمس، ولايوجد شىء مما مضى إلا ويتكرر دائماً[١].

والنظرة للعالم كمصدر للتعاسة، سواء بسبب كثرة التغير أو قلته نظرة عمياء فمثل هذه النظرة للعالم تنبع من العاطفة وتتجاهل العقل، وإذا كان للحالات النفسية أن تحلل وتخضع للعقل، فسوف نجد أن هناك أسباباً للأمل وأخرى لليأس، ومثل هذه النظرات للكون تكمن فى أن قائليها أقاموا معتقداتهم على العاطفة. ولم يستطيعوا أن يحرروا أنفسهم من هذه النزعة الطفولية[٢].

ب - النظرة التشاؤمية: هناك من ينظرون للكون نظرة متشائمة. ويرون أن من الحكمة أن نكون تعساء، يقول رسل " هناك بعض الناس يتصورون أن من الحكمة أن يشعر الإنسان باستحالة السعادة، فالعالم فى زوال، والحياة لاتستحق أن تعاش، والماضى أفضل من الحاضر. ومثل هذه النظرة المتشائمة للكون، لاترى أن فى الكون سبباً للسعادة بل تعتبره علة للتعاسة. والحقيقة أن علة التعاسة لاتكون فى الكون ولكن تكمن فى أصحاب هذه النظرة، فهؤلاء الذين يردون كل أحزانهم وتعاستهم إلى الكون، غالباً ما تكون العلة

---

(١) B. Russell : The Conquest Of Happiness, PP. 21-25.

(٢) B. Russell : The Conquest Of Happiness, P. 25.

داخل نفوسهم، ويعكسون الترتيب الطبيعى للأحوال. فالحقيقة أنهم تعساء لسبب لا يعلمونه. وتؤدى بهم هذه التعاسة لإلقاء اللوم على العالم. إن الشعور بأن الكل زائل، حالة نفسية يشعر بها الإنسان نتيجة للكل والافتقار إلى العمل والفعل أو نتيجة لتوفر حاجاته الضرورية بدون جهد يبذله للحصول عليها[١].

وللتخلص من هذه النظرة التشاؤمية للعالم، يرى "رسل أن فى العمل وبذل الجهد وسيلة لتخلص الإنسان منها، فالتخلص من الشعور بأن الكل زائل، لايكون إلا بالعمل والحاجة الضرورية لفعل شىء ما، فإذا كان طفلك مريضاً، ربما تشعر بالتعاسة، لكن لن تشعر بأن الكل زائل، سوف تشعر بأن استرداد الطفل لصحته أمر يجب السعى إليه، دون أن تتساءل ما إذا كان للحياة الإنسانية قيمة أم لا؟. كما أن الإنسان الموسر الذى يشعر بعبث الحياة لن يستمر شعوره بعبثها إذا فقد ثروته. إن الإنسان مزود مثل الحيوان بغريزة الكفاح من أجل الحياة، وعندما تتوفر له وسائل الراحة ولايبذل جهدا، يفقد عنصرا رئيسياً للسعادة، ومجرد إحساس الإنسان بأن هناك شىء ينقصه ويريد الحصول عليه ويتطلب ذلك منه بذل الجهد، فإن مثل هذا الإحساس يوفر له السعادة[٢].

جـ- النظرة الجزئية: ينظر بعض الأفراد للعالم نظرة جزئية، تنحصر فى مجموعة من الاهتمامات الشخصية، وتلك النظرة تجعل الفرد يتمحور حول ذاته، فيفقد إحساسه بالسعادة، والمقصود بالاهتمامات الشخصية، هى ذلك النوع من الاهتمامات الضيقة والتى تنحصر فى عمل الفرد وأسرته وما يحيط به فى أضيق نطاق. لذلك يميل الفرد إلى النظرة الجزئية أو الذاتية للأمور، فلايرى فى العالم غير هذه الاهتمامات الشخصية. ويرى رسل" أن الإنسان لابد أن يتجه نحو مجموعة الاهتمامات العامة وإلى النظرة الكلية للأمور، فالذى يقرأ كتاباً مثلا فى تخصصه يعتبر اهتماماً شخصياً أما إذا كان موضوع الكتاب خارج مجال تخصصه فإنه يعتبر اهتماماً عاماً. والحقيقة أن هناك اختلافاً فى حالة الفرد النفسية بين الحالتين لأنه فى الحالة الثانية - موضوع الكتاب خارج تخصصه - سيكون أقل اهتماماً وأقل نقداً، فتعتبر القراءة نوعاً من أنواع التسلية والراحة، لذلك توفر الاهتمامات العامة التى تكون بعيدة عن العمل أو الأسرة للإنسان الراحة والشعور بالسعادة، حيث لايفرض على الفرد اتخاذ قرارات جدية وسريعة، كما توفر للإنسان

---

(١) Ibid., PP. 20 - 21

(٢) Ibid., PP. 22-25

الإحساس بالتناسب، فلاتصبح الحياة ذات بعد واحد ويكتسب مهارة وزن الأمور وزناً صحيحاً، وإذا استطاع الإنسان التخلص من النظرة الجزئية والذاتية للأمور، تقل قيمة نظرته إلى ذاته ويتفتح عقله على العالم، ويعرف حدود قدراته ولن يهتم بالتفاهات، كما سوف تساعد مثل هذه النظرة العامة والكلية على تخطى الأزمات والتغلب على الأحزان، لأن تغيير مجرى الأفكار العقلية فى اتجاهات جديدة ونحو اهتمامات عامة يعتبر أمرا ضرورياً للسعادة[١].

٥ - عاطفة المحبة:

تعتبر عاطفة المحبة من العواطف الإنسانية التى تلعب دوراً هاماً فى علاقة الإنسان بالآخرين، وفى إحساسه بالسعادة من خلال تعامله معهم. إلا أن المشكلة ان هذه العاطفة قد تأثرت بتصورات ومفاهيم خاطئة، مما أدى إلى فسادها، والنظر للحب عموماً نظره متشائمة، ويرى رسل "أن هذه المفاهيم الخاطئة نتجت بسبب علاقة الحب بالجنس. ففى العصر الفكتورى، كان الجنس يعتبر من الرذائل والمحرمات، الأمر الذى أدى إلى اعتبار الحب الحقيقى هو الذى يقوم على التنازل والتظاهر بالتضحية والقدسية والطهارة وإنكار الذات، ومثل هذا التصور للحب يعتبر نتيجة للحرمان الجنسى وللفصل بين عاطفة الحب وبين الجنس، ولقد أدت هذه المفاهيم الخاطئة عن الحب إلى فساد علاقة الفرد بالآخرين فى عصرنا الحاضر. لأنه برغم ثبوت خطأ مفاهيم وتصورات العصر الفكتورى عن الحب، إلا أنها مازالت كامنة عند الفرد لاشعوريا، ومازال اللاشعور مملوءاً بتلك المعتقدات الأخلاقية القديمة المحرمة للجنس والحب. الأمر الذى أدى بإنسان العصر الحاضر إلى الشعور بنوع من التشويش والخلط، لأنه على الرغم من ثبوت خطأ تلك المعتقدات الأخلاقية القديمة، فأدى إلى لفظها ورفضها إلا أنه لم تظهر مكانها معتقدات أخلاقية جديدة. ومثل هذا الموقف يؤدى بالإنسان إلى الشعور باللامبالاة واليأس والندم والاستخفاف بالدنيا[٢].

لذلك لابد من ظهور قواعد أخلاقية جديدة، تخلص عاطفة الحب من تلك المفاهيم الخاطئة التى حاقت بها نتيجة للمعتقدات الأخلاقية القديمة والنظرة المحرمة للجنس، إن

---

(١) Ibid., PP.171-176.

(٢) Ibid., PP.28 - 30.

عاطفة المحبة لها تأثيرها السيكلوجي والفسيولوجي على الإنسان، وتعد من خبرات الحياة التى توفر للإنسان نوعاً من أنواع اللذة والسعادة يقول رسل " إن الحب مصدر البهجة لأنه يعد ضرورياً لظهور كل أنواع اللذات الأخرى، مثل الاستمتاع بالموسيقى وبجمال الطبيعة إن الحب يكسر القشرة الصلبة التى تحيط بالذات الإنسانية، لأنه عاطفة ضرورية لتحقيق التعاون البيولوجي ولإشباع الغرائز الأساسية للإنسان. لقد اعتبر الفلاسفة" الرواقيون والمسيحيون" الأوائل العزلة والعزوبية هما الخير الأقصى، فالإنسان ليس فى حاجة للآخرين ولقد دفعهم هذا التصور الخاطىء إلى اعتبار حب السلطان والسيطرة هدف أعلى للحياة. والحقيقة أن مثل هذه التصورات الخاطئة لاينحصر تأثيرها على الأخلاق النظرية فقط، بل يمتد تأثيرها إلى جانب هام من غرائزنا الإنسانية، إن حياة الإنسان تركز على التعاون ولقد زودته الطبيعة بالاستعدادات والقدرات التى تؤهله لتكوين الصداقة والتى تعتبر ضرورية لتحقيق التعاون. فالحب هو السمة الأساسية والأولية المشتركة بين الناس اللازمة لتحقيق التعاون، وهؤلاء الذين خبروا تجربة الحب الحقيقى لن يرون فى العزلة الخير الأقصى[1].

والحقيقة ان رسل يرى فى تحرر الإنسان من المعتقدات الأخلاقية القديمة وسيلة ضرورية للتخلص من المفاهيم الخاطئة عن الحب والجنس. لذلك يطالب بوضع أخلاق جديدة تستند على النظرة العلمية للجنس باعتباره أحد الغرائز الأساسية للإنسان وإشباعها يبتعد عن مفهومى الفضيلة والرذيلة. كذلك ضرورة تخليص الحب من تلك التصورات الخاطئة التى علقت به، فالحب لايعتبر مظهراً للتضحية والقدسية والتغاضى عن الأخطاء، وإنما يقوم على التفتح فيولد الخير ولكنه لايعنى نسيان الشر، إلا أن مثل هذه النظرة لعاطفة المحبة لاتنظر للحب كغاية فى ذاته، وإنما ننظر له باعتباره وسيلة لغاية، فالحب وسيلة لتحقيق التعاون ولتوفير اللذة والسعادة، ومثل هذه النظرة لعاطفة المحبة تجعل العاطفة تفقد محتواها ونقاوتها.

٦ - تعقيب:

١ - أراد رسل تخليص الفرد من الانفعالات المدمرة ومن أنماط السلوك التى تعوّد

---

(١) Ibid., PP.32 - 35.

الإنسان القيام بها دون النظر لمدى ارتباطها بسعادته ولجأ رسل إلى اتباع المنهج الاستقرائى فى دراسة صور ونماذج هذه الانفعالات والأنماط السلوكية سواء على مستوى الفرد أو المجتمع. ثم انتقل إلى منهج استنباطى يحاول أن يتتبع النتائج التى تؤدى إليها وبيان أثرها على سعادة الفرد والمجتمع ثم بدأ يحلل هذه الانفعالات والأنماط السلوكية لكى يوضح ما بينها من علاقات خفية غير واضحة. فلم يتوقف رسل عند حد دراسة انفعال معين أو نوع من أنواع السلوك دراسة منفصلة، وإنما كان يوضح الصلة بين انفعالات معينة ونماذج مختلفة من السلوك وعلاقتها بنظرة الفرد لذاته والعالم من حوله. فقد يكون انفعال ما أو سلوك معين علة وغاية، أو سبباً ونتيجة فى نفس الوقت. كما وضح وجود نوع معين من التشابك المعقد الذى قد يصل إلى حد التناقض بين ما قد يقره المجتمع وما قد يرفضه أو بين ما تعتبره الأخلاق التقليدية رذيلة من الناحية النظرية، وفى نفس الوقت تكون هى المسئولة عن وجود مثل هذه الرذيلة من الناحية العملية. فإن كانت الأخلاق التقليدية ترفض الحسد، إلا إنها من جانب آخر تزيد من انتشاره، بل وتشجع التربية على المنافسة التى تؤدى إليه. وإن كان التربويون يرون ضرورة شغل أوقات الفراغ للقضاء على الملل، إلا أن الشعور بالملل وتعود الطفل عليه يعد أمراً ضرورياً للأعمال الجادة. وعلى الرغم من اعتبار التواضع من الفضائل إلا أنه قد يؤدى إلى فقدان الثقة بالنفس وإلى انفعال الحسد. وإن كان التعاون من الفضائل التى يقرها المجتمع إلا أن عاطفة المحبة التى تعد ضرورية لتحقيقه، قد فسدت بسبب ما يحيطها من مفاهيم خاطئة وقيود أخلاقية واجتماعية. وبذلك ينتهى رسل إلى ضرورة إعادة فحص أنماط السلوك والعادات والمفاهيم الخاطئة والمعتقدات الأخلاقية لما بينها من تناقض ولأن معظمها قد فقد الغاية من وجوده.

٢ - اعتبر رسل انفعالات الفرد وأنماط معينة من السلوك وبعض العادات الخاطئة تشكل نوعاً من القيود التى تحد من حريته وبالتالى من سعادته. ولم يكن يهدف من تحليلها إلى تبرير وجودها أو الإبقاء عليها وإنما إلى ضرورة التخلص منها ويتم ذلك بالقضاء على أسبابها الحقيقية المتمثلة فى المعتقدات الأخلاقية التقليدية والنظم التربوية والاجتماعية التى تؤدى إلى وجودها. فلابد من قيام أخلاق جديدة تستند إلى العقل وحساب النتائج، ونظم تربوية تحقق للفرد الحرية الكاملة، ونظام اجتماعى يحقق المساواة والعدالة ومبدأ تكافؤ الفرص، ونظرة واقعية للغرائز الطبيعية للإنسان. ولم يتوقف رسل عند حدود التحليل والحذف والإبقاء. أو عند حدود التوضيح بل كان يحاول وضع تصور

لما ينبغى أن يكون، أو وصف لطرق العلاج، وإن كان ذلك النهج يخرج من إطار الموقف التحليلى الذى يتوقف عند حد التحليل والتوضيح، إلا أنه يمكن تبرير ذلك النهج برغبة رسل وعاطفته القوية نحو تحقيق حرية الفرد وسعادته.

٣ - وضح اتخاذ رسل للمعيار النفعى فى تحليله لمدى قيمة الأنماط المختلفة للسلوك أو الفلسفات والنظرات المختلفة للحياة فلم يتوقف عند حد التحليل النفسى أو الاجتماعى لأسبابها، إنما درس مدى تحقيقها لسعادة الأفراد وإشباع حاجاتهم الضرورية وتحقيق حريتهم. فلم يرفض الحسد والمنافسة باعتبارهما رذائل أو من الأشياء الشريرة ذاتها، ولكن بما لهما من نتائج تؤثر على سعادة الفرد وتدمر العلاقات الإنسانية، كذلك لم ينظر للمحبة باعتبارها فضيلة فى ذاتها، إنما نظر إليها باعتبارها وسيلة لتحقيق السعادة والتعاون. وإن كان تبرير وجود الحب لما له من نتائج أو النظر إليه كوسيلة يجرد الحب من قيمته العاطفية والوجدانية، إلا أن رسل يرى أنه لكى نحكم على سلوك ما أو مانعده فضيلة أو رذيلة أو على فلسفة ووجه نظر معينة للحياة، لابد أن يكون المعيار لمدى ما تحققه من نتائج تؤدى إلى سعادة الفرد.

الفصل الثالث

الأسرة والمجتمع والاستمتاع بالحياة

أولاً : الأسرة :

تعتبر الأسرة نظاماً اجتماعياً تلقائياً يحصل المجتمع من خلاله على الأولاد الذين يمثلون عناصر استمراره، ومن خلالها تنمو العواطف الإنسانية الأساسية لاستمرار الجنس البشرى، كما تعتبر المدرسة الأولى التى يتعلم الطفل من خلالها القيم والمثل العليا، لذلك تبرز أهمية الأسرة لأن تأثيرها ممتد ومتشعب الجوانب، ولقد تناولت العلوم الإنسانية مثل علم النفس والتربية وعلم الاجتماع دراسة الأسرة من عدة اتجاهات لأنها تؤثر وتتأثر بكل المشكلات التى تظهر داخل المجتمع، تؤثر لأن فى صلاحها صلاح المجتمع، وفى نفس الوقت تتأثر بالتغيرات السياسية والاجتماعية والاقتصادية التى تنعكس على أعضائها وتؤثر على نظم معيشتهم وقيمهم وسلوكهم. ولما كانت الأسرة بمثل هذه الأهمية فإن سعادة أفرادها تنعكس بدورها على المجتمع.

ويرى رسل "أنه على الرغم من أن الأسرة تعتبر النظام الوحيد الذى يفترض فيه أنه يوفر السعادة لأفراده. إلا أنه من الملاحظ فى عصرنا أن التعاسة هى السمة الغالبة التى يعانى منها الآباء والأبناء[1] لذلك أصبح من الضرورى البحث عن أسباب تعاسة الأسرة وأفرادها. ولما كان دور الفرد داخل الأسرة يمتد للتأثير على أدوار الآخرين، فإنه أصبح من الضرورى دراسة دور كل فرد على حدة ثم دراسة العلاقات بين أفرادها.

١ - الأم :

أصبح واضحاً أن هناك تغير فى دور الأم فى عصرنا إذا ما قورن بدورها فى ظل نظام النظم الاقتصادية والسياسية السابقة. لأن ما حدث من تغيرات فى النظام الاقتصادى المعاصر وخروج المرأة إلى العمل واستقلالها المادى قد أثر إلى حد كبير على دورها فى

---

(١) B. Russell . The Conquest Of Happiness. P. 144

الأسرة. وعلى الرغم مما حققته المرأة من مكاسب تمثلت فى مساواتها بالرجل فى الحقوق والواجبات وتمتعها بحرية التنقل والتحكم فى إنجاب الأطفال، إلا أنها فقدت إحساسها بالسعادة وبالتالى كان لذلك أثر على الزوج والأبناء. يقول رسل " قديما كانت المرأة تسعى للزواج للهروب من العنوسة ومن الفقر، وربما كانت تنتحر إذا مارست الجنس خارج الزواج. أما الآن فإنه يمكنها أن تعمل وتستقل مادياً ويمكنها ممارسة الجنس خارج الزواج، وأن تحيا حياة سعيدة وممتعة، فإذا ما رغبت فى الزواج والإنجاب، فإنها سوف تخسر وظيفتها وبالتالى استقلالها المادى، وقد يؤدى ذلك إلى اضطراب مادى فى دخل الأسرة. كما أن قيامها بالأعباء المنزلية سوف يجعلها تهتم بالأمور التافهة، وتصبح بلهاء ضيقة الأفق وربما تفقد جمالها. الأمر الذى يجعلها مملة لزوجها لأنها نتيجة عملها بالمنزل لن تتناقش معه إلا فى الأمور التافهة. أما بالنسبة لأولادها فإنه سوف تطلب منهم دائما الكثير مقابل تضحيتها بشبابها وراحتها من أجلهم. الأمر الذى يجعل علاقتها بالأولاد أكثر تعاسة. كما ستظل دائماً تقارن بين وضعها قبل الزواج وبعده ومن خلال هذه المقارنة تجنى الشقاء. وأما إذا تمكنت من الجمع بين الوظيفة والأسرة، والاعتماد على المربيات. فإنها سوف تضعهن تحت بصرها. وتصبح حياتها توبيخاً، مما يجعلها تعانى من الإرهاق العصبى، وينعكس ذلك بدوره على باقى الأسرة ويتسبب فى تعاستهم[1] لذلك أصبح دور الأم فى عصرنا وحيرتها بين العمل والمنزل لايوفر لها السعادة.

٢ - العلاقة بين الآباء والأبناء:

تأثرت العلاقة بين الأباء والأبناء إلى حد كبير بسبب انتشار المدنية وازدحام السكان. إذ يرى رسل " أن النمو العمرانى قد أثر على سلوك الأطفال. لأن زيادة السكان والتكدس فى المدن والزحام، أدى إلى صغر حجم المنازل فغالباً ما تسكن الأسرة شقة صغيرة وبالتالى لاتتسع للعب الأطفال، الأمر الذى يجعل الأطفال فى حالة عصبية دائمة، ويتأثر الرجل بهذا الوضع لأنه أصبح لايستطيع الراحة فى منزله أو الانفراد بزوجته[2]. وبلاشك يؤدى مثل هذا الوضع إلى تعاسة الأبناء والآباء. كذلك تأثرت العلاقة بين الآباء

---

(١) Ibid., PP. 144 - 145.

(٢) Ibid., P. 145.

والأبناء بانتشار الأفكار الديمقراطية على المستوى السياسى. يقول رسل "قديما كان هناك السيد والعبد والعلاقة بينهما ثابتة ومحددة طالما أن السيد يشعر بالسعادة، أما سعادة أو شقاء العبد أمر لاينظر إليه. أما الآن أصبح حق العبد الحصول على سعادته، وأصبح السيد يشك فى وضعه كرد فعل لانتشار الأفكار الديمقراطية. وقد انتقلت مثل هذه الأفكار إلى الأسرة فلم تعد "الأبوة" مظهراً من مظاهر السلطة، ولم يعد للآباء سلطة على الأولاد كما كانت من قبل، بل فقدت طاعة الآباء قدسيتها، ومما زاد الأمر تعقيداً، ما توصل إليه التحليل النفسى من النتائج التى تترتب على نوع المعاملة بين الآباء والأبناء. فإذا عامل الآباء أبنائهم بحنان زائد، تعرض الطفل للإصابة "بعقدة أوديب" وإذا مال الآباء إلى القسوة والشدة تكون النتيجة أسوأ. وعلى ذلك فطالما أن الأولاد فى حاجة لتعلم ما يعد من وجهة نظر الآباء فضائل، والآباء لا يعرفون كيف يعاملون أولادهم خوفاً من اتهامهم بالتسلط، فإن مثل هذا الوضع يسبب التعاسة للآباء والأبناء[1] وأثر عدم وضوح العلاقة بين الآباء والأبناء، وإصرار الأم على طلب التعويض من أبنائها، على سعادة الأسرة وكيانها بصورة عامة.

٣ - إنجاب الأطفال:

هناك علاقة بين الرغبة فى تكوين الأسرة وإنجاب الأطفال وبين الشعور بالسعادة. لذلك فإن تزايد الإحساس بأن الأسرة بنظامها الحالى قد لاتحقق السعادة سوف يقلل من الرغبة فى تكوينها، لأن الإنسان غالباً ما يبتعد من الناحية السيكلوجية عن المواقف والعلاقات التى لايستمد منها سعادته أو تقلل منها. ونتيجة لذلك سوف تنتشر العلاقات الزوجية الخالية من الإنجاب وبالتالى سوف يقل عدد الأطفال فى العالم. ويظن رسل "أن كثرة المشكلات داخل الأسرة وتعاسة أفرادها سوف يقلل عدد الراغبين فى الإنجاب" الأمر الذى سوف يؤدى إلى نقص عدد المواليد فى الدول المتحضرة، لأنه قد أصبح واضحاً أن الأكثر ثقافة وتحضراً أقل رغبة فى الإنجاب، والأقل ثقافة وتحضرا مازال أكثر إخصاباً. وحتى إذا ماحاولت هذه الدول الاستعانة بالمهاجرين من دول أقل تحضراً، فإن هؤلاء المهاجرين سوف يتأثرون بالمدنية مع مرور الوقت ويفقدون الرغبة فى الإنجاب.. والحقيقة أن الإنسان ينجب الأطفال، إما لإحساسه أن إنجابهم سوف يزيد من سعادته، أو لأنه

---

(١) Ibid., PP. 146 - 148.

لايعرف طريقة يمتنع بها عن الإنجاب وذلك بات متوفراً مع وسائل منع الحمل، وعلى ذلك يعتبر الإحساس بالسعادة من وجود الأطفال عنصراً هاماً لزيادة الرغبة فى الإنجاب، وإن كانت الكنيسة تعتمد على مبدأ التخويف من الجحيم فتجعل الزواج مقدساً وإنجاب الأطفال أمراً ضرورياً، فإن هذا المبدأ إذا ما كان له تأثير على البعض، فإنه لم يعد له تأثير عام. وإن كانت الدولة تعتمد على الشعور الوطنى وتشجع على الإنجاب من أجل الدفاع عن الوطن، فإنها غالباً ما تفشل فى ذلك. لأن كثيرا من الناس لايرغبون فى إنجاب أطفالهم لكى يصبحوا وقوداً للمدافع[1]، لذلك فإحساس الفرد بالسعادة من تكوين الأسرة هو الدافع الوحيد لإنجاب الأطفال.

والحقيقة أن رسل "افترض أن أسرة اليوم لاتحقق السعادة لأفرادها، بسبب التغير الذى طرأ على دور الأم، وتعقد العلاقة بين الآباء والأبناء وقد يؤدى ذلك إلى انهيارها وعدم الرغبة فى تكوينها، كما استنتج أن البلاد المتحضرة سوف تزول ما لم تضع الحلول المناسبة لكى تشجع الأسرة على زيادة الإنجاب. وعلى الرغم من صحة ما قدمه رسل من تحليل للأسرة وسعادتها. إلا أن مثل هذا التحليل لايمكن تطبيقه على حضارة العالم الثالث أو ما يعتبرهم رسل الدول الأقل تحضراً. والحقيقة أن السبب الرئيسى لغياب السعادة فى أسر العالم الثالث يرجع للعامل الاقتصادى والفقر ونقص الخدمات وللمعاناة اليومية من أجل الحصول على الحاجات الضرورية. كذلك إحجام الشباب عن الزواج يرتد بالضرورة إلى ارتفاع أعباء وتكاليف الزواج. لذلك لايمكن اعتبار أن الإقبال على تكوين الأسرة أو عدم الإقبال لايكون وقفاً على ما يتوقعه الفرد من سعادة أو تعاسة من تكوينها، بقدر ما يكون من القدرة على تحمل الأعباء المادية المفروضة.

أما بالنسبة للإقبال على إنجاب الأطفال، فإنه لايمكن قصرها على توقع السعادة من وجودهم. لأن إقبال الفرد على الأنجاب غالباً ما يتأثر بعدة عوامل، فهناك العامل الاقتصادى فى قدرة الفرد على تحمل نفقات الطفل، والعامل الاجتماعى الذى يتمثل فى العادات والتقاليد، والعامل النفسى الذى قد يجعل الفرد يرغب الأطفال لأنه كان وحيداً فى طفولته، والعامل الدينى الذى قد يشجع على إنجاب الأطفال - فالإسلام مثلاً يدعو إلى زيادة النسل بتعدد مزايا الأطفال وترغيب الفرد فى التناسل - والعامل الوجدانى حيث

---

(١) Ibid., PP. 149 151.

تحكم العاطفة سلوك الفرد وتدفعه للزواج وإنجاب الأطفال بدون أن يتساءل ما إذا كان سوف يحصل على السعادة أم لا؟.

كذلك من الواضح أن رسل "يدعو لزيادة إنجاب الأطفال، حيث ربط بين تعاسة الأسرة وتوقع قلة المواليد، وبالتالى انهيار الحضارة الغربية. والحقيقة أن الدعوة لزيادة الإنجاب يمكن تفسيرها بأنها دعوة تخدم الفكر الغربى الاستعمارى الذى يرغب فى التفوق العددى للسيطرة على العالم لأن اعتبار صالح الغرب يكون بزيادة الأطفال والحاجة إلى عدد كبير من السكان للحافظ على الحضارة، أصبح أمراً غير ضرورى، لأن العلم والآلات الحديثة ونقص عدد الوفيات قد ألغى هذه النظرة الكمية. وكما يقول "ول ديورانت":

" ليس ثمة حاجة اجتماعية أو دعوى أخلاقية لوجود أسرة كبيرة. وإذا اقترح أحدنا أن تظل المرأة محتفظة بوظيفة الأمومة يجب أن يكون ذلك سبب تحقيق سعادتها وليس بهدف تحقيق مصلحة الجماعة[1]".

٤ - مقومات السعادة داخل الأسرة:

إن كان شعور الأفراد بالسعادة المتوقعة من تكوين الأسرة يؤدى إلى الإقبال على تكوينها. كذلك فإن وجود الأسرة والمحبة بين أفرادها يعد عنصراً ضرورياً لتحقيق السعادة. أى أن السعادة تنبع من الأسرة وفى نفس الوقت تؤدى إلى تكوينها وتحافظ على استمرارها، يقول رسل "إن الرجل يستمد من الأبوة إحساساً بالسعادة، لأنه مثل المرأة يرغب فى الخلود ووجود الأطفال يحقق له هذه الرغبة الغريزية الطبيعية. وإن كان يمكن أن نستثنى الرجال ذوى المواهب الخاصة الذين يخلدون بعد موتهم. إلا أن عامة الناس لايتمتعون بمواهب خاص، لذلك لايجدون وسيلة تحمل ذكراهم فى المستقبل غير إنجاب الأطفال. كذلك يشعر الأب بقيمة الحياة وأن هناك هدفاً يسعى لتحقيقه الأمر الذى يوفر له إحساساً بالسعادة، لأن الشعور باستمرارية الحياة وبأن هناك هدف معين يملأ حياة الإنسان سعادة، ويجعله بعيداً عن الشعور بالعبث. إن أساس قيام الأسرة يكمن فى أن الوالدين يشعران بنوع من المحبة المتميزة اتجاه أطفالهم. لأن الإنسان قد يحب آخر لجماله أو لمزاياه، أما حب أفراد الأسرة بعضهم لبعض. فإنه مجرد عاطفة غير مسببة. وإن كان الشاب قد

---

(١) ول ديورانت مناهج الفلسفة، الجزء الأول، ترجمة د. أحمد فؤاد الأهوانى، مكتبة الأنجلو المصرية، ١٩٥٧، ص٢٣٦

لايهتم بهذا الحب خلال فترات نجاحه، إلا أن يكون له بمثابة نوع من العزاء والشعور بالأمن فى حالات الفشل[1]. وتتكون مقومات السعادة داخل الأسرة من حريات ثلاث؛ حرية أفراد الأسرة وحرية الأطفال وحرية الأم.

أ - حرية أفراد الأسرة : إن شعور كل فرد من أفراد الأسرة بالحرية يعد شرطاً ضرورياً لتحقيق السعادة. والواقع أن تحقيق الحرية ليس أمراً سهلا أو بسيطاً، خاصة إذا كانت بين طرفين، لأنها تتطلب احترام كل طرف للآخر والرقة والعطف بينهما، فتحقيق السعادة لأحد الأطراف أمر بسيط، أما تحقيقها لكلا الطرفين فإنه يعدا أمراً فى غاية الصعوبة. فالسجان يشعر بالسعادة من عمله والأب يشعر بالسعادة من السيطرة والسلطان، والدكتاتور يشعر بالسعادة عند فرض سلطته وإرادته، إلا أن الطرف الآخر فى تلك العلاقات غالباً ما يعانى من الشقاء. لذلك فإن الشرط الضرورى لتحقيق السعادة هو وجود نوع من المساواة واحترام وعطف متبادل بين الأطراف[2]. وعلى ذلك إذا ما رغب أفراد الأسرة الشعور بالسعادة. لابد من أن يتوفر لهم أولاً الشعور بالحرية الشخصية ولايطغى أى منهم على حقوق الآخر.

ب- حرية الأطفال : يعد شعور الطفل بحرية أمراً ضرورياً لسعادته وسعادة الآباء، لذلك لابد من أن يقلل الآباء من سيطرتهم، وأن يمنح الطفل الحرية الكاملة عندما يحين الوقت المناسب، الذى يستطيع الطفل فيه الاعتماد على نفسه. ويؤكد رسل "على أن - إحساس الأب بالسعادة يستمد من أمرين، أولهما من إحساسه بالخلود الشخصى من خلال أولاده، وثانيهما فى المزج بين حب السيطرة والعطف فالطفل مخلوق ضعيف لاحول له ولا قوة، الأمر الذى يدفع الآباء لمساعدته وتقديم العون له. ولكن مثل هذا الموقف من الآباء على الرغم من أنه يشبع رغبتهم فى السيطرة والسلطان، إلا أنه يعد موقفاً ضرورياً طالما أن الطفل لايستطيع الاعتماد على نفسه. لكن إذا ما نضج الطفل واستمر الوالدان يقدمان له المساعدة نفسها فإن ذلك يمثل صورة سافرة لدافع حب السيطرة. الأمر الذى قد يدفع الطفل إلى العصيان والتمرد، فيشعر الوالدان بنوع من خيبة

---

(١) B. Russell : The Conquest Of Happiness, PP.150-151.

(٢) Ibid., PP.. 152-153.

الأمل لأن الطفل لم ينشأ كما كانا يرغبان ويشعران بالتعاسة[1]. لذلك يجب أن تكون معاملة الطفل نابعة من الدافع لتحقيق مصلحته وليس الدافع حب السيطرة والتملك، كما يجب أن تتم المعاملة بصورة تلقائية. إذ يرى رسل " أنه إذا كان لدى الآباء رغبة صادقة فى تحقيق مصلحة الطفل ولايعتبرونه مصدراً لإشباع رغبتهم فى السيطرة، فإنهم يستطيعون أن يعاملوا أطفالهم بدون مساعدة من الكتب التربوية. أو من التحليل النفسى، بل بالاعتماد على السلوك التلقائى الذى ينبع من صفاء القلب والذى يمكنهم من أن يعرفوا بطريقة مباشرة ما يجب أن يفعلوه وما لايجب، ويتمكنوا من تحقيق نوع من الانسجام بينهم وبين أطفالهم. كما يجب أن تعامل شخصية الطفل بنوع من الاحترام، وليس منبع الاحترام هنا ثقافياً أو أخلاقياً. بقدر ما هو مجرد الإحساس بالرغبة فى التخلص من حب السيطرة[2].

جـ- **حرية الأم** : إن للأم دورها فى فساد أو صلاح شخصية الطفل وتنعكس مشاعرها على الأطفال مباشرة. لذلك يعد شعورها بالحرية عنصراً ضرورياً لسعادتها وسعادة أطفالها. فيجب أن تتحرر الأم من العبودية للأطفال، وأن تترك الطفل يحقق ذاته واستقلاله وتساعده على أن يحل كل مشاكله بنفسه، كما يجب ألا تفقد اهتماماتها الأخرى فى الحياة من أجل الأطفال. لأن ذلك يدفعها إلى مطالبة الأطفال بالتعويض مقابل تضحياتها وعليها الاستعانة بالمتخصصين فى مجال تربية الطفل، لأنها لم تتلق من الآلهة أو من الغريزة الوسيلة النموذجية لتربية الطفل. إن الطفل لايمنح الأم حباً أكثر مما يمنح للأب، وعلى الرغم مما هو متعارف عليه من زيادة نصيبها من التضحية عن الأب، إلا أن الطفل يمنح المحبة للأم والأب بنفس الدرجة. لذا يجب على الأم ألا تتوقع من الطفل أن يضحى بأبيه من أجلها، أو يمنحها حباً أكثر مما يمنحه، لأن مثل هذا التوقع غالباً ما يؤدى إلى تعاستها. كذلك لابد أن تنتبه الأم لدوافعها الحقيقية. لأن كثيراً من الأمهات يفسدن حياة أطفالهن لاعتقادهن بضرورة المحافظة والحرص وتوفير الحماية للطفل، إلا أنهن يكن مدفوعات بالرغبة فى السيطرة دون وعى منهن[3].

---

(١) Ibid., P.155.

(٢) Ibid., PP.. 156-158.

(٣) Ibid., PP.. 159-160.

والواقع أن رسل يطالب الأم أن تعتمد فى تربية أطفالها فى علم التربية والمختصين فى هذا المجال، مع أنه كان قد سبق ودعى للتلقائية فى معاملة الأطفال واعتبرها كافية لتستقيم العلاقات بين أفراد الأسرة. خاصة إذا كان دافع الآباء الحب للأولاد ولمصلحتهم إلا أنه من الملاحظ صعوبة الربط بين السلوك التلقائى وبين ذلك السلوك الذى يستند على أسس علمية، بل ليس هناك تزاوجاً ضرورياً بين العلم والتلقائية فالسلوك التلقائى يقوم على الوجدان والعاطفة، بينما السلوك القائم على العلم سلوك مقنن يعتمد على العقل ويخضع للمنطق العقلى الجاف ويمكن تبرير ذلك الموقف من رسل أنه قصد الاعتماد على العلم فى معرفة أنسب الطرق لتغذية الطفل وتمتعه بصحة سليمة جيدة، كما يمكن تبرير دعوته للتلقائية بأنه يحاول تشجيع الآباء على إنجاب الأطفال، دون الخوف والحيرة فى معاملتهم فالسلوك التلقائى يعد كافياً، إلا أن إيمانه الشديد بالعلم جعله يطالب بأن التربية النموذجية هى تلك التى تعتمد على أسس علمية.

ويقترب رسل من أصحاب مذهب المنفعة العامة ومن جون ستيوارت مل، حيث يحاول ضمان أكبر سعادة تعود على المجموع[1]، ويعتبر السعادة ضرورية لضمان استمرار الأسرة، والأسرة فى نفس الوقت ضرورية لإشباع عاطفة حب الاجتماع لدى الإنسان، وبذلك تصبح مصلحة الفرد مرتبطة بمصلحة الجماعة، كذلك من الواضح ارتباط السعادة بالمنفعة، فالأسرة تحقق للفرد منفعة باعتبارها معبراً لخلوده ولسعادته. ومعنى ذلك أنه إذا تحقق للإنسان الخلود (من الناحية الفكرية مثلا) فإن الأسرة لن تكون بالضرورة مصدراً من مصادر السعادة، وعلى ذلك سوف يقتصر تكوين الأسرة على البسطاء من الناس وذوى العقول متوسطة الذكاء والحقيقة أن ربط الشعور بالسعادة بتكوين الأسرة فيه استبدال للعامل الدينى بالعامل الإنسانى، فإن كان الدين المسيحى يعتبر الزواج مقدساً، فالعامل الإنسانى . و الدعوة للإنسانية تعتبر الزواج معبراً للخلود. وهنا تتضح رغبة رسل فى استبدال جزاء الدنيا بجزاء الآخرة. ومصلحة الفرد فى مصلحة الجماعة وسعادته فى سعادة الأسرة. كذلك إذا كانت سعادة الفرد فى تحقيق منفعته، فإن الأسرة تحقق المنفعة لجميع أفرادها فهى تحقق إشباعاً للأنانية وحب السيطرة للوالدين، وتشبع الحاجة للأمن والاستقرار عند الطفل.

---

(١) د. ذكريا إبراهيم، المشكلة الخلقية، مكتبة مصر، ١٩٧٥، ص ١٩٧، القاهرة.

إن اعتبار الشعور بالسعادة دافع لتكوين الأسرة يقوم على النظرة النفعية، وتلك النظرة للأسرة تتجاهل العامل الوجدانى فى تكوين العلاقات الإنسانية. فقد تستمر الأسرة على الرغم من إحساس بعض أفرادها بالتعاسة، وقد يسعى الشاب لتكوين أسرة بدافع الحب الخالص وبعيداً عن النظرة النفعية. والواقع أن تحليل دور كل فرد من أفراد الأسرة لتوضيح مدى ما يتحقق له من منفعة أمر يحطم الهارمونية التى تميز الأسرة كخلية اجتماعية، فمثل هذا التحليل يتعامل مع الأسرة كمؤسسة صناعية حيث يحدد وظيفة كل فرد فيها. وإن كان رسل قد هدف من تحليل الأدوار. أن يبين حدود دوافع كل طرف من أطرافها، إلا أنه أهمل عنصر التكامل والهارمونية داخل الأسرة، فالأسرة يجب النظر إليها ككيان قائم بعلاقاته المتداخلة، وقد يحدث تبادل فى الأدوار وتداخل عاطفى بين أفرادها، إلا أنها تشكل فى النهاية. وحدة قائمة. على الرغم من أن التعاسة قد تكون من نصيب أحد أفرادها.

ويطالب رسل بالتشجيع على تكوين الأسرة وإنجاب الأطفال، وإن كان يرى أن خير وسيلة لذلك أن يشعر الفرد بأنه سوف يستمد السعادة منها. إلا أن دعوته لاتخلو من العرقية والتعصب للحضارة الغربية، حيث اعتبر عدم إقبال الشباب على تكوين الأسر وإنجاب الأطفال أمراً يؤدى إلى فناء الحضارة الغربية. ويقارن دائماً بين قلة الإنجاب فى الدول المتحضرة وزيادة السكان فى الدول غير المتحضرة، الأمر الذى يوضح أن رسل على الرغم من دعوته للمساواة والحرية لشعوب الأرض ودعوته لقيام حكومة عالمية، إلا إنه لم يستطع أن يتخلص من النظرة المتعصبة للقومية الغربية ومن فكرة السيطرة الدائمة للغرب.

ثانياً: المجتمع:

يعتبر المجتمع الدائرة الكبيرة التى يدخل فيها الفرد ويتأثر بها بعد الأسرة، لذلك تمثل العلاقة بين الفرد والمجتمع، محوراً لتعاسته أو سعادته، فسعادة الفرد ضرورية لسعادة المجتمع التى تعد بدورها ضرورية لسعادة الفرد. فالإنسان كائن اجتماعى سعادته مستمدة من الآخرين وتتمثل محاور الاحتكاك بين الفرد والمجتمع فى العادات والتقاليد والقيم وسلطة الرأى العام ونظرة المجتمع للشباب، ولئن كان أصحاب المذهب النفعى ينظرون إلى المجتمع والفرد باعتبار كل منهما يؤثر فى الآخر فإن رسل لم يخرج عن هذا الإطار التقليدى للفلسفة النفعية ويضع رسل الفرد تارة باعتباره الأنا وتارة أخرى باعتباره

الآخر. لذلك يرى أن هناك أموراً ضرورية يلزم أن يقوم بها من موقف الآخر، وكما يرى سارتر فيلسوف الوجودية أن حريتى تنبع من حرية الآخرين، لذلك حرية الآخرين شرط ضرورى لتحقيق حريتى بينما الآخرون هم الجحيم. كذلك يرى رسل أن الحرية شرط لسعادة الفرد والآخرين، على الرغم من أن الآخرين يمثلون قيداً على سعادته وحريته، ولذلك تكمن أسباب الشقاء إما فى خلل فى سلوك الفرد نحو الجماعة أو فى طغيان المجتمع على الفرد.

١ - الخوف من الرأى العام.

يمثل الرأى العام وسيطرته سبباً رئيسياً فى تعاسة الأفراد خاصة فى مرحلة الشباب، ويحلل رسل العلاقة بين الشباب وسلطة الرأى العام بقوله "إن قليلاً من الناس يشعرون بالسعادة فى حالة عدم توافق وجهات نظرهم وآرائهم مع المجتمع القريب منهم. وغالباً ما يحدث عدم التوافق بين بعض الأفراد ومجتمعهم، بسبب تعدد وجهات النظر واختلافها حول تفسير معنى أحد المبادئ الأخلاقية. وقد يحدث هذا التعدد فى وجهات النظر بين أفراد الطبقة الواحدة، أو بين أفراد طبقة وطبقة أخرى من طبقات المجتمع. كما قد يحدث التعارض مع المجتمع عندما يقارن الفرد بين العادات والتقاليد والمبادئ الأخلاقية لمجتمعه، وتلك التى تكون فى مجتمعات أخرى. فالطلاق مثلاً نجده محرماً فى المجتمع المسيحى، بينما نجده مباحاً وضرورياً لاستمرار الزواج كنظام فى مجتمعات أخرى، وما قد يتمناه الفرد أن يحدث فى مجتمعه، قد يجده ضمن العادات المتعارف عليها والمألوفة جداً فى مجتمع آخر. فيقع الفرد فى الحيرة ولايستطيع أن يقرر أى منهما على صواب أو على خطأ. وإذا ما أراد أن يتبع عادة أو تقليد متعارف عليه فى مجتمع آخر، فإن مجتمعه لايقبل منه ذلك، ويتخذ منه موقف الرفض والنفور. كذلك غالباً ما يعانى الشاب ذو الموهبة أو المتمتع بعقل ناضج من اضطهاد المجتمع له، خاصة إذا كان مجتمعه من نوع المجتمعات المغلقة، وقد يجد الشاب نفسه مواطناً فى بلد يقابل بالعداء والرفض كل ما هو عقلى ومنطقى، فإذا ما قرأ كتباً ذات قيمة علمية وجادة، أو تبنى آراء ووجهات نظر مخالفة لتلك التى يؤمن بها والديه فى الأمور الدينية والسياسية. فإنه يجد نفسه محاطاً بالنظرية العدائية، فأقرانه يتهمونه بالشذوذ، والكبار يصفونه باللاأخلاقية، الأمر الذى يسبب له قدراً كبيراً من التعاسة. وقد تزداد وتتسع المشكلة إذا ترك مجتمعه وانتقل إلى مجتمع آخر، فإذا كان المجتمع كبيراً، فإنه من الصعب أن يجد صداقات ومجالات يعبر

فيها بصدق فى آرائه ومعتقداته الحقيقية. وإذا كان المجتمع الذى انتقل إليه مجتمعاً صغيراً، وكانت وظيفته من تلك الوظائف التى تعامل باحترام وتقدير مثل الطبيب والمدرس، فإنه يخفى أفكاره الحقيقية معظم اليوم، أو على الأقل أثناء فترة العمل وبلاشك سوف يقلل مثل هذا السلوك من سعادته[١]. لذلك يجب أن يتخلص الفرد من سيطرة الرأى العام. لأننا لانستطيع أن ننكر دور الرأى العام فى مجتمع ما، سواء كان كبيراً أو صغيراً، وأن له تأثيره المباشر أو غير المباشر على حرية الفرد وبالتالى على سعادته.

يجب أن يتحرر الفرد من الخوف الوهمى الذى ينشأ من طغيان الرأى العام، "فكثيرا ما يؤدى الخوف الوهمى من الرأى العام إلى أمور سيئة ويكون الرأى العام أكثر طغياناً على من يحترمه ويرفع من قدره ويخاف منه، بينما قد لا يتأثر به الفرد الذى لايعره التفاتا ولا يهتم به. فالعلاقة بين الفرد والرأى العام مثل علاقة الفرد بالكلب، إذا خاف منه الإنسان هجم عليه، وإذا لم يعره التفاتا وظل سائر فى طريقه، فإنه لن يؤذيه، فغالباً ما ينظر الرأى العام للفرد الذى لايهتم به بنوع من التسامح، طالما أنه يسلك وفق تقاليد وعادات معينة وبصورة تلقائية، وقد يعتبره الرأى العام من المختلين عقلياً فيتركه دون أذى ويسمح له بما قد يحرمه على الآخرين[٢].

٢ - الصراع بين القديم والجديد:

يعتبر التعارض والتضاد بين الجيل القديم والجديد تعارضاً أزلياً تمليه طبيعة الأمور، فالجيل القديم يتمسك بقيمه وعاداته وتقاليده ويخشى التغيير، والجيل الجديد يسعى دائماً نحو التغيير والتجديد، وعلى الرغم من الاتجاهات التى أصبحت تنادى بحرية الشباب، وضرورة إفساح المجال أمامه ليختار ويخط قيمة وعاداته وتقاليده الخاصة به، إلا أنه مازال هناك مجتمعات كثيرة تعارض مثل هذه الاتجاهات والنزعات التحررية. فغالباً ما يحاول كبار السن فى تلك المجتمعات فرض عاداتهم وتقاليدهم على الشباب، الأمر الذى يشكل سبباً رئيسياً لتعاستهم وتعاسة الشباب، ويقف حائلاً أمام التطور الطبيعى للمجتمع، ويرى رسل "ضرورة تمتع الشباب بالحرية وعلى الذين يجدون أنفسهم فى تعارض دائم

---

(١) B. Russell : The Conquest Of Happiness. PP. 97-98.

(٢) Ibid., P99.

مع عادات وتقاليد مجتمعهم. أن يبحثوا عن المجتمعات التى تناسبهم. ولما كان الشباب ذا معرفة ضئيلة بالعالم، فإن من واجب الآباء مساعدتهم لأن تبادل الخبرة يشكل أساساً لاستمرار النوع الإنسانى والحقيقة أن علماء التحليل النفسى يجانبهم الصواب، عندما يفترضون دائماً أن العيب فى الفرد دائماً وليس فى المجتمع. لنفرض أن فردا ما وجد فى مجتمع قاس ضيق الأفق فتعارض معه، إلا أنه بالرغم من أن التعارض مع مثل هذا المجتمع يعد أمراً حسناً، إلا أن مثل هذا لفرد سوف يفقد سعادته. والحقيقة أن سعادة الشباب فى شعوره بالحرية واختيار مايريد. وله كل الحق فى رفض أو قبول نصائح الكبار، وإن كان عليه أن يضع فى اعتباره دائماً الاستعانة بآراء المختصين والمحترفين فى المجالات العلمية، فحرمان الشباب من حريته وفرض القيود عليه بدعوى قلة الخبرة والتجربة وبأن الكبار أعلم وأخبر بشئون الحياة سوف يؤدى بلاشك إلى فقدان الشباب لأهم غرائزه الأساسية كحب الاستطلاع والمغامرة. الأمر الذى سوف يؤدى إلى تعاستهم، لذلك يجب منح الشباب الفرصة والحرية الكاملة، لأن مثل هذا الشعور بالتعاسة سوف يقضى على كل موهبة قد يستفيد منها المجتمع. وإن كان البعض يرون أن معاناة الشباب أمر ضرورى وأنهم يستفيدون من هذه المعاناة، إلا أنه بسبب تلك النظرة هناك ملايين الشباب يعانون التعاسة. لكون آبائهم يؤمنون بأن الأكبر يعرف الأكثر. وأنه لايمكن أن يكون رأيه خاطئاً. أو يسمح للأصغر بالتفوق عليه. لذلك لابد من معاملة رغبات الشباب باحترام وليس من الضرورى أن يحترم الشباب رغبات الكبار، بل يجب ألا يذعن لرغباتهم مهما كانت الضغوط عليه. وعليه أن يعتمد على التجربة لإثبات صحة أو خطأ اختياره لموضوع ما. ويختار التحدى إن كان اختياره ضد رغبة والديه[1].

إلا أن رسل على الرغم من دعوته الكاملة لحرية الشباب، عاد يطالب بوضع القيود عليها، حيث يقول "لاأدعو لمخالفة الرأى العام فى كل كبيرة وصغيرة، لأن هناك قواعد عامة يجب أن يراعيها الفرد حتى لايتعرض للسجن أو الموت من الجوع مثلا، ولكن ما أرغب أن يكون الإنسان صريحاً مع نفسه، ولا يهتم بالمظاهر ولايشعر بخوف ليس له ما يبرره من الرأى العام. ولا أدعو للشذوذ الكامل لأنه لايؤدى إلى السعادة، كما يجب أن يسلك الفرد بصورة تلقائية وأن يتبع رغباته الحقيقية، طالما أنها لا تشكل خطراً على

(١) B. Russell : The Conquest Of Happiness, PP. 101-103.

المجتمع أو تتعارض معه بشكل سافر، وإن كانت كذلك فإن وسائل المواصلات الحديثة تمكنه من تكوين الصداقات التى تتوافق مع ميوله واتجاهاته، وتحرره من الارتباط بجيرانه أو المحيطين به. فنجاح الفرد فى تكوين تلك الصداقات يوفر له الشعور بالثقة بالنفس، وإحساساً بالسعادة لأن الإنسان يرغب دائماً أن يحيا وفق رغباته[1].

٣ - سعادة الشباب :

تعتبر مرحلة الشباب أكثر مراحل العمر نشاطاً وحيوية. والشباب يشعر بالسعادة حين تستثمر حيويته ونشاطه فى بناء المجتمع ومن إحساسه بأن له قدرة التأثير فى مجتمعه. إلا أن ذلك يتوقف على مدى الحرية الممنوحة للشباب ونظرة المجتمع لدوره. ويقارن رسل بين أوضاع الشباب فى المجتمعات المختلفة حيث يعتقد "أن المجتمعات الثورية المفتوحة تنمى لدى الشباب إحساساً بأن لديه أهدافاً معينة يسعى لتحقيقها وأن لديه القدرة على إنجازها، فشباب الاتحاد السوفيتى مثلا. يشعر بأنه يخلق مجتمعاً جديداً، ويؤمن بأنه سوف يسعد فى المستقبل. وبصرف النظر من صحة ذلك أو عدمه من الناحية النظرية، فإن إحساس الشباب بمثل هذا الشعور يسعدهم، كذلك فى اليابان يزداد إحساس الشباب بالوطنية، وبأنه يستطيع أن يحقق أهدافاً معينة، وأن لديه القدرة والسلطة على الإصلاح والتغيير أما الشباب الأوروبى فإنه عاجز وفاقد للسلطة، ولديه إحساس بالرفاهية والراحة مما يجعله يشعر باللامبالاة، وليس له دور فى الحياة العامة ولايستطيع التأثير فى الرأى العام. وإن كان فى مقدوره أن يحيا حياة رغدة، إلا أنه يشعر بأنه مسلوب الإرادة، الأمر الذى يجعله يشعر بالتعاسة[2].

وينتهى رسل من تلك المقارنات بين أوضاع فى المجتمعات المختلفة، بأن سعادة الشباب تكون فى استغلال طاقاته وحيويته وثوريته. إذ يرى "أن الإنسان الثائر نصيبه أوفر من السعادة لأنه يؤثر فى الرأى العام، حتى أنه فى لحظة إعداده، قد يشعر بسعادة لايشعر بها ميسور الحال اللامبالى والمستهتر. إن سعادة الشباب فى إحساسهم بأنهم أداة تغيير فى المجتمع وأنهم القوة الفعالة فى. ولايكون دور الشباب مسألة اختيارية أو بعمل صحف

---

(١) Ibid., PP. 105-1-6.

(٢) Ibid., PP. 115-116.

وأندية لهم وإنما بحصولهم على دور إيجابى يشعر الشباب من خلاله بتنمية غريزة البناء عنده ويشبع حب استطلاعه. كذلك لابد من إشراك الشباب فى العمل السياسى وتنمية مواهبه بشتى الطرق حتى تصبح لديه المهارة الكافية للقيادة والعمل[1].

والحقيقة أن ربط الشعور بالسعادة بإشباع الغرائز أمر له مخاطره. سواء على الفرد أو المجتمع. وإن كان رسل لم يقصد إشباع كل الغرائز فقد سبق ووضح أن التربية[2] يمكنها أن تحد من الرغبات المدمرة. إلا أنه يطالب بإعطاء الشباب الحرية الكاملة وعدم ضرورة استفادته من نصائح الكبار، فلم يترك وسيلة للآباء يمكنهم بها الحد من تلك الرغبات عند الشباب، كذلك استند رسل على المقارنة بين أوضاع الشباب فى المجتمعات المختلفة فى الخروج بنتيجة تتمثل فى أن الشباب فى المجتمعات الثورية أكثر حظاً من السعادة، إلا أنه لم يستند فى ذلك الحكم على التحليل العلمى والبيانات والإحصاءات. ويتناقض مع نفسه عندما يؤكد فى مواضع أخرى أن شباب المجتمعات التى تنادى بالقومية والوطنية والعنصرية محروم من حرية العمل والمغامرة. ومع ذلك يمكن تفسير ذلك الموقف من رسل بأن ميله الشديد للثورة والتغير والحرية ورغبته فى إعطاء المزيد من الحرية للشباب الأوروبى، جعله يتمنى ثورية شباب المجتمعات الاشتراكية للشباب الأوروبى، مع إنه من الواضح أن شباب المجتمع الأوروبى، أكثر حظاً من السعادة من شباب تلك المجتمعات المتمتعة بحرية العمل والتنقل والمغامرة . . والحقيقة أن سعادة الشباب أمر نسبى تختلف من مجتمع لآخر. فالمجتمعات المغلقة سعادة شبابها فى التغير والتحرر والانفتاح. والمجتمعات المفتوحة سعادة شبابها فى استمرار الأوضاع ومزيد من التحرر والمجتمعات النامية سعادة شبابها فى البناء ارتقاء المدنية وسرعة التحضر وسعادة شباب المجتمعات الغنية فى إشباع هواياته ومواهبه. لذلك سعادة الشباب فى مجتمع ما لايمكن الحكم عليها إلا بالنسبة للوضع الثقافى والاقتصادى للمجتمع.

---

(١) Ibid., P. 117

(٢) الباب الأول، الفصل الثالث من الرسالة.

٤ - سعادة العامة وسعادة الخاصة :

إذا نظرنا إلى سعادة أفراد المجتمع، نجد أنها نوعان:

سعادة العامة، وسعادة الخاصة، أو سعادة فى مقدور كل الأفراد التمتع بها، وأخرى يتمتع بها طبقة المثقفين والعلماء والفنانين، إذ يرى رسل " أن هناك نوعين من السعادة، سعادة العامة وسعادة الخاصة أو سعادة حيوانية وأخرى روحية، أو حسية وعقلية، والمقصود بسعادة العامة، هى تلك التى يتمتع بها البسطاء من الناس والتى تنبع من مجرد السعى نحو تحقيق هدف ما، أو محاولة التغلب على عقبة معينة، فالمزارع مثلاً الذى يشغل نفسه فى محاربة الأرانب التى تهاجم حقله. يشعر بسعادة فى التغلب عليها، ومثل هذا النوع من السعادة لايعرف صاحبها شيئاً من الثقافة إنما يحصلها صاحبها من مجرد بذل نشاط ما. فليس المهم نوع النشاط إنما المهم أن يكون فى مقدور الفرد القيام به. لذلك يجب ألا يبالغ الفرد فى قدراته. فيصاب بالزهو والدهشة فى حالة الفشل وألا يقلل من قدراته لحد يفقد معه الجرأة والشجاعة والمغامرة. فالفرد العاقل هو من يوزان بين الزهو التواضع[١].

وأما سعادة الخاصة فهى تلك التى يتمتع بها المثقفون لأنها تستمد من الفكر وتعتمد على العقل ، وهى تتشابه مع سعادة العامة فى أنها تنبع من السعى نحو تحقيق هدف ما إلا أن هدفها يجب أن يكون هدفاً عاماً وإنسانياً خارج حدود الاهتمامات الشخصية الجزئية، فكلما اتصف الهدف بالعمومية والشمول والإنسانية كانت فرص الإحساس بالسعادة أمتع وأفضل. ويرى رسل "أن أهداف العلماء أوضح دليلاً على ذلك فالعالم الذى يؤمن بهدف معين ويسعى لتحقيقه يشعر بالسعادة، وكل خطوة يصاب بها بالفشل تصبح فى نفس الوقت دافعا وحافزاً له للاستمرار فى مواصلة عمله. حتى يتحقق له النجاح. إن العلماء أكثر المثقفين شعوراً بالسعادة. لأن عملهم يشغل فكرهم دائماً، ويؤمنون بأن العلم محور التقدم وذو قوة وسلطان، ومثل هذا التصور يمدهم بالسادة، لأن إيمانهم بتلك الحقيقة يجعلهم لايعيرون اهتماماً للعواطف والأهواء فيتمتعون بعواطف هادئة لاتعترض طاقاتهم الحيوية[٢]. كذلك فإن مثل هذه الأهداف تحمى العلماء من بطش الرأى العام

---

(١) Ibid., P. 110

(٢) Ibid., P. 112

وسيطرته. ثم يقارن رسل بين سعادة العالم والفنان فيرى "أن العالم أكثر حظاً من السعادة، فلأن الفنان يتأثر بسلطة الرأى العام، فقد لايحظى عمله باستحسان الجمهور. بينما العالم إذا ما شعر فرد ما بصعوبة فهم آرائه، فإنه سوف يعتقد أنه لم يصل إلى المستوى العلمى المطلوب، لكى يفهم ما يفعله العالم لذلك تقل سيطرة الرأى العام بالنسبة للعلماء؛ كذلك يحتاج الفنان إلى إثبات نفسه دائماً أمام الرأى العام، أما العالم فلايحتاج ولا يواجه مثل هذا الموقف"[1].

والحقيقة أن العالم قد لايتأثر بسيطرة الرأى العام فى كل الأحيان، إلا أن هناك علماء لم يسلموا من بطش الرأى العام أمثال "جاليليو" و "كوبر نيقس" وحتى رسل نفسه قد عانى من بطش الرأى العام فى بلاده بالرغم من سعيه نحو أهداف عامة وإنسانية. إن الرأى العام لا يتكون إلا إذا كان هناك قضية أو فكرة معروضة للبحث فيهب من يراها حقاً للدفاع عنها، ويعارضها من يرى أنها ليست كذلك ويشتد النزاع والصراع بين مؤيد ومعارض لها. وفى حالة زيادة المؤيدين والمعارضين يتكون الرأى العام تجاهها. وعلى ذلك فالعلماء يتعرضون إما للتأييد أو الرفض من قبل الرأى العام، وغالباً ما يتوقف ذلك على مدى توافق أو عدم توافق الكشف العلمى لهم مع العقائد السائدة فى المجتمع. كذلك تتوقف قدرة تأثير الرأى العام على العلماء على سرعة أو بطىء تكوينه. فالرأى العام لمجتمع ما يرتبط بحرية الصحافة ومستوى الوعى العلمى وقدرة أفراده على فحص المسائل مثار الجدل. كما لا يمكن اعتبار الرأى العام مصدراً للتعاسة فى كل الأحيان، لأنه إذا كان واعياً مستنيراً قد يشكل حماية للمفكرين فى حالة بطش السلطة بهم.

٥ - مقومات السعادة فى المجتمع :

إن سعادة أفراد المجتمع تتطلب جهداً وكفاحاً وأنماطاً معينة من السلوك عليهم بذلها. فالسعادة لاتعطى عن طريق الفم وليست منحة من الآلهة. لذلك يجب أن يحصل عليها الإنسان بشتى الطرق. وإذا استثنينا هؤلاء الذين توفر لهم المال والصحة والزواج الناجح وإنجاب الأطفال، فإن هناك العديد من أفراد المجتمع فقراء، والصحة ليس فى مقدورنا

---

(١) Ibid., P. 114

التحكم بها، لذلك يعد السعى نحو السعادة فى شتى الاتجاهات مطلباً ضرورياً [١] وتتمثل مقومات السعادة فى المجتمع فى الاهتمام بالعمل وبذل الجهد والنظرة الودية للآخرين.

أ - العمل : إذا كان اهتمام الإنسان بهدف ثابت يسعى لتحقيقه عنصراً ضرورياً لسعادته، فإن العمل وبذل الجهد يعد الوسيلة لتحقيق هذا الهدف. ذلك إلى جانب أن العمل يشكل حاجزاً أمام الشعور بالملل والإحساس بالتفاهة، يقول رسل "يكون العمل مصدراً للسعادة إذا كان تدريبا لمهارة ، ويهدف البناء، فالفرد الذى يكون عمله تدريباً لمهارة معينة، يشعر بمتعة العمل ولذته. ومثل ذلك العمل يجعل هناك نوعاً من التنافس بين مهارة وأخرى، الأمر الذى يزيد من متعة الفرد. كذلك إذا كان الهدف من العمل البناء وليس الهدم فإنه يوفر للفرد متعة البداية ثم متعة الإشباع بعد اكتماله. بينما إذا كان الهدف من العمل الهدم فإن الهدف يكون مكتملاً، بمعنى أن الهدف هدف فى حد ذاته ويكون نابعاً من الكراهية ومرتبط بها. إن البناء لايتوقف عند حد معين، وحتى إذا ما اكتمل الهدف من العمل فإن الفرد يسعى لهدف آخر، ولكى يشعر الفرد بقيمة عمله وقيمة البناء لابد أن يتخلص من الكراهية وإذا ما امتزج العمل بالصدق والأمانة واحترام النفس فإن الإشباع الذى يحققه للفرد من أمتع أنواع السعادة[٢]. إلا أن اللامبالاة والكسل وقد تكون أيضاً فى بعض الأحوال سبباً من أسباب السعادة. حيث يرى رسل "أنه قد يعتبر اعتزال العمل أفضل من الاستمرار فيه طالما أن الحصول على النجاح المستمر مع وجود المنافسة أمر صعب. كذلك فإن اللامبالاة وعدم الشعور باليأس لكل فشل بسيط وعدم الاهتمام بالموضوعات التافهة تعد من أسباب السعادة[٣].

ب - النظرة الودية للآخرين والأشياء : إن نظرة الفرد للآخرين وللأشياء من حوله تؤثر على سعادته، فقد يشعر الفرد بالنظرة العدائية من الآخرين أو قد يرى فى الأشياء من حوله سبباً لتعاسته.

---

(١) Ibid., P. 168

(٢) Ibid., PP. 160 - 167.

(٣) Ibid., P. 169

وغالباً ما يحدث مثل هذا الشعور بسبب نظرة الفرد للآخرين وللأشياء، لأنهم مثل المرآة العاكسة يعكسون ما يشعر به الفرد تجاههم. لذلك إذا استمد الفرد السعادة من وجودهم، فسوف يستمدون أيضاً السعادة من وجوده. ولكى يستمد الفرد السعادة من وجود الآخرين ووجود الأشياء لابد أنت يتخلص من النظرة العدائية أو ما يسمى "بنظرة الشرطة" للأفراد فالكل متهمون إلى أن تثبت براءتهم، إذ يرى رسل "أن السعادة الحقيقية للفرد تنشأ مما يسمى بالنظرة الودية للآخرين والأشياء" وتقوم مثل هذه النظرة على الحب ورؤية الآخرين والأشياء من خلاله، فالإنسان يرى الآخرين والأشياء من خلال عواطفه. فيفسر سلوكهم تبعاً لما يشعر به نحوهم من محبة أو كراهية. لذلك تعتبر محبة الناس محبة تلقائية دون إحساس بالشعور بالواجب أو انتظار لرد الفعل والشكر والعرفان بالجميل من جانبهم، من الأمور التى توفر للفرد الشعور بالسعادة. وأما المقصود بالنظرة الودية للأشياء فهو أن تكون نظرة الفرد للأشياء من حوله شبيهة بنظرة "الجيولوجى" للصخور أو بنظرة عالم الآثار للأطلال القديمة. حيث يستمد متعة من تلك النظرة، ولكى يستمع الفرد بالأشياء من حوله لابد أن يشعر نحوها بالمحبة، فالذى يدرس "العنكبوت" مثلا لأنه يكره العناكب. لن يستمد أى نوع من أنواع السعادة بسبب تلك الكراهية[1].

والواقع أن رسل جعل من السعادة وسيلة لاستمرار المجتمع وتطوره، وسعادة أفراده فى تمتعهم بالشعور بالحرية. فسعادة الشباب فى الحرية الكاملة والمغامرة، وسعادة الكبار فى تخلصهم وتحررهم من حب السيطرة والرغبة فى السلطان على الشباب، وعامة الناس والبسطاء سعادتهم فى تحررهم من الكسل والجهل، والخاصة والمثقفون سعادتهم فى تحررهم من النظرة الشخصية الضيقة وتبينهم لأهداف عامة. وبصورة عامة فسعادة الفرد فى تحرره من الكراهية للآخرين وللأشياء والحقيقة أن رسل لم يجعل السعادة غاية فى ذاتها. إنما يوظفها من أجل استمرار المجتمع وينظر إليها نظرة نفعية باعتبارها وسيلة لغاية. وعلى الرغم من وضوح الاتجاه المنفعى عنده، إلا أنه يحيد عنه فيطلب من الإنسان أن يعامل الآخرين بود ومحبة ودون انتظار لرد الفعل منهم، وهنا يبدو أنه ينظر للمحبة باعتبارها خير فى ذاتها. فلئن كان يبدو شديد الاتجاه نحو الواقعية فى دراسته لأوضاع

---

(١) Ibid., P. 119

أفراد الأسرة والمجتمع. إلا أنه فى دعوته لطرق الحصول على السعادة يقترب من المثالية خاصة فى معاملة الفرد للآخرين.

ثالثاً: الاستمتاع بالحياة:

كثير من الأفراد يمارسون حياتهم بنوع من الإحساس بالواجب، أو دون استمتاع بما حولهم من مباهج الطبيعة أو من وجود الآخرين، وبالتالى يتحول كل شىء فى حياتهم إلى نوع من الروتين، الأمر الذى يؤدى إلى تعاستهم. لذلك يعد استمتاع الإنسان بما حوله أمراً ضرورياً لسعادة الفرد. ويعرف رسل الاستمتاع من خلال عرض لبعض الأمثلة بقوله "فمثلا عندما نلاحظ شخصاً ما يتناول طعامه. نجد أن هناك نماذج ثلاثة الأول قد يتناول الطعام باعتبار أن ذلك مفروض عليه أو من الواجبات التى يجب أن يلتزم بها، فكل شىء فى الحياة عمل. والثانى (الشره) ينظر للطعام بنوع من حب التملك. أما الثالث وهو الوسط يتناول طعامه بشهية وتلذذ، ويتوقف فى الوقت المناسب وذلك هو الاستمتاع[1]. كما يرتبط الاستمتاع بالمحبة، لأن من يحب شيئاً ما يستمتع به. ويوضح رسل ذلك فيقول" إذا كان هناك شخصين مثلاً أحدهما يفضل نوعاً معينا من الطعام والآخر لايفضل طعاماً على آخر، فالأول يستمتع بما أحب، أما الثانى فلايستمتع. وعلى ذلك يجب أن نقيس جميع أمور الحياة الهامة. فمن يحبها يستمتع بها ويقترب من السعادة. ولما كان ما نحبه ونهتم بها ونكون أقل خضوعاً لرحمة القدر. لأنه إذا ما فقدنا شيئاً ما، فسوف نجد آخراً نستمتع به، ولئن كانت الأشياء كثيرة والحياة قصيرة ولانستطيع ان نستمتع بها كلها، فإنه يجب أن نستمتع بأكبر قدر منها. كما تعد كثرة الاهتمامات ضرورية لعمل العقل. فالعقل لايستطيع أن يؤدى وظيفته إلا إذا كانت به مادة، لذا كلما كان هناك اهتمامات كثيرة. كان مجال عمله أوسع. وكل إنسان يستطيع أن يستمتع بشىء ما، فمصادر الاستمتاع كثيرة وكلها متساوية وكل ما يستمتع به يؤدى إلى السعادة[2].

١ - الاستمتاع بوجود الآخرين:

إن وجود الآخرين قد يكون مصدراً للسعادة أو التعاسة. لأن الفرد يتأثر بوجودهم ويرى نفسه من خلالهم. فإذا ما رغب الفرد فى الشعور بالسعادة والاستمتاع من

---

(١) Ibid., P. 123

(٢) Ibid., P. 124

وجودهم، يجب أن يعاملهم بمودة ويشاركهم قضاياهم ومشكلاتهم ويلتحم بهم، يقول رسل "هناك من ينظر للآخرين باعتبارهم مصدرا للملل والضجر، فيحاول فى تعامله معهم إما أن يكون محايداً أو متجنباً لهم ولمشاكلهم. وهناك من ينظر لهم نظرة ودية وبنوع من الاهتمام والتعاطف معهم، فبالتالى يحاول الاحتكاك بهم ليعرف عنهم الكثير. فالقائم برحلة مثلاً قد يظل محافظاً على نوع الطعام الذى يتناوله فى بيته ويعيش كما فى وطنه، لذلك يعود من رحلته لايحمل معه أكثر من الملل والسأم، أما إذا اختلط مع سكان المكان الذى يزوره فيحيا حياتهم ويتناول طعامهم ويعرف عنهم الكثير من تاريخهم. فإنه يعود من رحلته بمعلومات يستمتع بها ويكون أكثر حظاً من السعادة[1].

والحقيقة أن رسل يفترض أن الالتحام بالآخرين يؤدى إلى شعور الفرد بالاستمتاع، إلا أن ذلك لايصدق فى كل الحالات فقد يكون الآخرون مصدراً للتعاسة. فالاستمتاع من الرحلات يختلف عن الاستمتاع من مشاركة الآخرين قضاياهم ومشكلاتهم والنظرة الودية لهم. إذ قد يكون هذا النوع من الاستمتاع متناقضاً تماماً مع سعادة الفرد، لأن هناك دائماً سوء الفهم والمصالح المتناقضة ووجهات النظر المختلفة. لذلك يمكن اعتبار دعوته للنظرة الودية نظرة مثالية أكثر منها واقعية.

٢ - الاستمتاع بالطبيعة:

تترتب على نظرة الإنسان للطبيعة وأحداثها مدى ما يشعر به من استمتاع، فمن يستمتع بجمال الطبيعة ونظامها وكوارثها وأحداثها يشعر بالسعادة. ويقول رسل "إن على الإنسان أن يتمتع بجمال الطبيعة وأحداثها ولاينظر لها نظرة مملة أو متشائمة فإن هناك جوانب متعددة فى الطبيعة يمكن للإنسان أن يستمتع بها ويمكن للإنسان أن يستمتع بالطبيعة، إذا ما اعتبرها مصدراً لإشباع حب الاستطلاع واكتساب المعرفة، فمثل هذه النظرة الطبيعية تمكن الإنسان أن يستمتع بكوارثها. فإذا ما رأى الزلزال مثلا يقول "هذا هو إذن الزلزال" أى لا ينظر للطبيعة نظرة عاطفية بقدر ما ينظر لها نظرة علمية. وعلى ذلك

---

(١) Ibid., PP. 124 - 126

فالنظرة للطبيعة بنوع من حب الاستطلاع يجعل الإنسان يستمتع بأحداثها حتى وإن أصابه مكروه فإن هذه الإصابة لن تقلل من متعته[1].

والحقيقة أن رسل يحاول تبرير كوارث الطبيعة على اعتبار أنها ليست بالضرورة مصدراً للتعاسة، فيرى رسل أن الإنسان إذا ما اعتبر أحداث الطبيعة تمثل إشباعاً لحب الاستطلاع، فإنه سوف يستمتع بها بكوارثها. ولئن كان بمثل هذه النظرة للطبيعة يحاول الرد على المتشائمين، إلا أنه لايمكن حصول الإنسان على الاستمتاع بكوارث الطبيعة. فمثل هذا الموقف يحتاج إلى إرادة تشبه تلك التى يتمتع بها المتصوفة، والإنسان إذا كان ينظر للكوارث الطبيعية منذ فجر التاريخ باستمتاع، لما اخترع الحضارة وحاول إخضاع الطبيعة لسيطرته. ومع ذلك فلكى يتحقق الاستمتاع بوجود الآخرين وبالطبيعة لابد وأن يرتبط بالاعتدال والحرية والمحبة.

أ - الاستمتاع والاعتدال : يرتبط الاستمتاع بالاعتدال وخير الأمور أوسطها فالاستمتاع يكون فى الاعتدال والتوسط والموازنة، فيجب ألا تؤثر المتعة على الناحية الصحية للفرد أو على علاقاته الاجتماعية. يقول رسل "إن أفضل المتع تلك التى لاتؤثر على الصحة وتكون فى حدود مايقره المجتمع. فمثلا من يشعر بمتعة من تعاطى الخمور قد تتحول متعته إلى مصدر للألم وسعادته إلى تعاسة، لأنه إذا لم يتوقف فى الوقت المناسب ووصل إلى حالة الأدمان فإنها سوف تؤثر على صحته وعلى علاقاته الاجتماعية. كما يجب ألا تؤثر متعة ما على الأنشطة الأخرى التى يمارسها الفرد. فإذا كان لعب الشطرنج نشاطاً يوفر للفرد إحساساً بالمتعة، فإذا مثل هذه المتعة تشكل على المدى البعيد مصدراً للتعاسة، إذا ما ترك الفرد عمله وأهمل حياته الاجتماعية. لذا يجب الا تستحوذ متعة واحدة على حياة الفرد، أو تكون على حساب الصحة، أو تؤثر على حب الآخرين لنا، أو تكون متعارضة مع قوانين وعادات وتقاليد المجتمع[2].

ب- الاستمتاع والحرية : يرتبط الاستمتاع بالحرية ولكى يستمتع الإنسان بما حوله، لابد أن يتخلص من كل القيود التى تحد من حريته، سواء كانت قيود اجتماعية أو أخلاقية

---

(١) Ibid., P. 128

(٢) Ibid.,P P. 130 - 134

أو فرضها التحضر والمدنية. ويرى رسل " أن ما يفسد الاستمتاع فى المجتمعات المعاصرة يعود إلى كثرة القيود التى تحد من حرية الإنسان، وكبت الدوافع الغريزية، وكثرة الضوابط الاجتماعية المرتبطة بالتحضر. فالحزين لايستطيع البكاء والسعيد لا يستطيع أن يرقص. وعلى الرغم من أهمية القيود الاجتماعية باعتبارها ضرورية لاستمرار المجتمع. إلا أنه يجب التقليل منها لأن كثرتها تحد من استمتاع الفرد. فالطفل يعانى من قيود داخل الأسرة والكبار يعانون من قيود المجتمع والعادات والتقاليد، والمرأة تسجنها القيود الأخلاقية التقليدية، التى تفرض عليها الاحتشام وعدم إظهار أنوثتها، كما يجب تحقيق المساواة بين الرجل والمرأة، لأن الإحساس بالظلم يفسد الاستمتاع بالحرية فالمساواة من أسس التمتع بالحياة والبناء السليم للشخصية[1].

جـ- **المحبة والاستمتاع** : إن شعور الفرد بأنه محبوب من الآخرين يعد عنصراً ضرورياً لشعوره بالثقة بالنفس والإحساس بالأمن، الأمر الذى يمكنه من الاستمتاع بما حوله، ويرى رسل " أن شعور الفرد بأنه مكروه أو بنفور الآخرين منه، يعد أحد الأسباب الرئيسية لنقص الاستمتاع، وقد يتولد هذا الشعور بسبب ما قد يكون الفرد قد عاناه من نقص فى المحبة والحنان أثناء طفولته أو لفقدانه الشعور بالثقة بالنفس. وشعور الفرد بكراهية الآخرين له، قد يدفعه إلى محاولة شراء حبهم له بعمل الخير والشفقة عليهم، فتزداد كراهيتهم له، ويحدث عكس ما كان يتوقع منهم، أو قد يدفعه إلى القيام بأعمال تشكل نوعاً من التحدى للمجتمع مثل اللجوء إلى العنف والواقع أن المحروم من المحبة يصبح أنانياً ويميل إلى الانطواء، فيقع فريسة للاستغراق الذاتى ويخالف العالم الخارجى ولايشعر بالأمن والأمان، وبالتالى يفقد القدرة على مواجهة الحياة والاستمتاع بها"[2]، وعلى ذلك يعتبر استمتاع الفرد بالحياة وبالطبيعة من حوله وبوجود الآخرين عنصراً ضرورياً للشعور بالسعادة، ويجب ألايكون الاستمتاع مؤثراً فى نفس الوقت على الصحة، أو على الأنشطة الأخرى التى يقوم بها الفرد، أو على من يكن لهم المحبة، أو يؤدى إلى فقدان الفرد لاحترام الآخرين.

---

(١) Ibid., PP. 130 - 134.

(٢) Ibid., P. 135.

والحقيقة ان دعوة رسل للاستمتاع قد يمكن تفسيرها، بأنها دعوة شبيهة بتلك التى ينادى بها أصحاب المذهب اللذى، إذ يرى اللذيون أن اللذة هى الخير وغاية الأفعال الخلقية كلها إحداث اللذة والتخلص من الألم، وأن اللذة المستحدثة هى الخير والألم المنجو منه هو الشر. إلا أن رسل لم يجعل من اللذة أو الاستمتاع غاية كل أفعالنا الخلقية، أو أنه قد وجد بين الخير واللذة كما أنه لم يطالب بالاستمتاع والتمتع كدعوة للأنانية، أو تمركز الفرد حول ذاته ورغباته ومتعه. إن رسل ينظر للاستمتاع والتلذذ من الحياة ليس كغاية فى ذاته، وإنما ينظر للاستماع كوسيلة. فالاستماع والتلذذ الذى لايؤثر على صحة الفرد وأعماله واحترام الآخرين له، يعتبر وسيلة ضرورية لتحرر الفرد من الاستغراق الذاتى والأنانية والإحساس بالحرمان. والتمتع بالحياة يؤدى بالفرد إلى الانفتاح على العالم وعدم الانغلاق حول ذاته. ومثل هذا الشعور يقود إلى السعادة وإلى الحياة الخيرة، لأنه طالما يتمتع الإنسان بالحياة ويتحكم العقل فى مقدار المتع، فإنه لن يسعى للقيام بأفعال تضر بها أو بالذين يشكلون مصدراً لاستمتاعه.

رابعاً: تعقيب وخاتمة:

١ – اتبع رسل نظرة تحليلية فى دراسته لسعادة الأسرة والمجتمع، فلقد درس أسباب التعاسة، ولم ينظر للأسرة باعتبارها كل بل حلل دور كل فرد بها وأسباب تعاسته وكيف تتحقق له السعادة. ولم يتوقف التحليل عند حد دراسة السلوك الخارجى الذى يؤديه كل فرد من أفراد الأسرة إنما اكتسب مزيداً من العمق بالوصول إلى أعماق الشعور واللاشعور عند كل فرد من أفرادها. إذ يمكن القول بأن التحليل اتخذ صورتين. تحليل "أفقى" بدراسة مكونات الأسرة "الطفل والأم والأب، وتحليل "رأسى" أى دراسة الأسباب النفسية لكل منهم. وفى دراسته للمجتمع لم يتعامل معه باعتباره كلا بل باعتباره أجزاء، فهناك سعادة الشباب وسعادة الكبار وسعادة العامة وسعادة الخاصة من المثقفين والعلماء والفنانين. فحلل علاقة كل فرد مع الكل والأسباب النفسية التى تؤدى إلى سعادة أو شقاء كل منهم. كما أنه حلل علاقة الفرد بالحياة وبالآخرين ونظرته للأشياء من حوله. إلا أنه لم يتوقف عند حد تلك النظرة التحليلية، بل استمر فى وضع تصور لما ينبغى أن يكون وكيف يتخلص الفرد من أسباب وعوامل الشقاء. . فالتحليل هنا وسيلة لغاية وليس غاية فى حد ذاته.

٢ – انتهى رسل من تحليل سعادة الأسرة والمجتمع بوجود علاقة ضرورية، بين شعور الفرد بالسعادة لاستمرار الأسرة كنظام اجتماعى ضرورى لإنجاب الأطفال،

واستمرار تقدم المجتمع ازدهاره، فالشعور بالسعادة ليس مطلباً فى حد ذاته. بقدر ما هو وسيلة لوجود الأسرة وتقدم المجتمع. كذلك وجود الأسرة وانفتاح المجتمع وتقدمه ضرورى لسعادة الفرد، أى هناك نوع من المصالح المشتركة المتبادلة بين الفرد والأسرة وبينه وبين المجتمع، فسعادة الفرد ضرورية لاستمرار الإقبال على الزواج وإنجاب الأطفال، ووجود الأسرة ضرورى لإشباع الحاجات الأولية للفرد ودوافعة النفسية كذلك سعادة الفرد ضرورية لتقدم المجتمع وتماسكه واستمراره، طالما أنها تقوم على بذل الجهد والعمل والبناء والنظرة الودية للآخرين وللأشياء والمحبة والحنان. فمثل تلك الأشياء على الرغم من أنها ضرورية لسعادة الفرد فإنها تحقق للمجتمع تقدمه وازدهاره.

٣ - كما وضح من تحليل الأسرة والمجتمع وجود علاقة بين الشعور بالحرية والسعادة. فإذا مازادت القيود سواء النفسية والاجتماعية أو الداخلية والخارجية تنقص سعادة الفرد، فسعادة الأسرة تكون فى إعطاء مزيد من الحرية لأفرادها، وتخلصهم من القيود النفسية، تلك التى تتمثل فى المخاوف الوهمية والشعور بالذنب أو بشكل عام القيود التى تسجن الفرد داخل ذاته. وأيضاً سعادة أفراد المجتمع تزداد إذا ما قلل المجتمع من قيوده الاجتماعية والأخلاقية، وإذا لم يؤكد الأخلاقيون على مبدأ "إنكار الذات" لأن التأكيد على مثل ذلك المبدأ يجعل الفرد يقع فى الاستغراق الذاتى ويشعر بالحرمان. إذ لايعرف لما يضحى. كما أنه ليس بالضرورة أن يضحى الفرد بسعادته من أجل الآخرين. وأما الفرد من جانبه عليه أن يتحرر من اهتماماته الشخصية ويتجه نحو الاهتمامات العامة الموضوعية، وينظر للآخرين نظرة ودية تقوم على المحبة والعطف، كما يرتبط الشعور بالحرية وبالتمتع والاستمتاع بالحياة، لأن حرية الفرد ترتكز على إشباع غرائزه الطبيعية فإذا ما تحرر الإنسان من الحرمان ومن القيود التى تحد من إشباع غرائزه. توفر له الشعور بالسعادة.

٤ - يقترب رسل فى دعوته لتحقيق السعادة من الاتجاه النفعى فى الأخلاق، على اعتبار أن مذهب المنفعة ما هو إلا امتداد لفلسفات السعادة. إذ يربط رسل بين السعادة والخير بقوله "إن الحياة السعيدة تعتبر إلى حد كبير صنواً للحياة الخيرة. ولقد أخطأ فلاسفة الأخلاق التقليديون فى تأكيدهم على مبدأ إنكار الذات لأنهم بذلك وضعوا التوكيد فى غير موضعه، لأن إنكار الذات إنكاراً واعياً يجعل المرء مستغرقاً فى ذاته وواعياً بما ضحى به، ومن هنا يعجز إنكار الذات فى كثير من الأحيان عن بلوغ هدفه المباشر. لذا فإن ما

تحتاج إليه ليس إنكار الذات، إنما ذلك النوع من توجيه الاهتمامات (الشوق) نحو الخارج، هذا التوجيه الذى يؤدى بطريقة تلقائية وطبيعية، إلى نفس الأفعال التى لايستطيع الشخص المهتم بالسعى وراء الفضيلة القيام بها إلا عن طريق إنكارالذات إنكاراً واعياً[1]، وبذلك يؤكد رسل أن الفضيلة لاترتبط بتضحية الفرد بذاته من أجل الآخرين. كذلك يؤمن رسل "بأن السعادة هى الخير" والأفعال التى يوصى بها الفيلسوف اللذى هى على الجملة عين تلك الأفعال التى قد يوصى بها دعاة الأخلاق العقلاء. فخطأ الأخلاقيين التقليديين أنهم يضعون التوكيد دائماً على الأفعال لا على الحالة العقلية للفاعل. والحقيقة أن آثار الأفعال فى القائمين بها تختلف اختلافاً كبيراً وفقاً للحالة العقلية التى تسيطر عليهم عند أدائها. كذلك يخطئ الأخلاقى التقليدى حين يزعم مثلاً، ان الحب يجب أن يكون مبرءاً من الأنانية. وإن كان هناك جانب من الصواب فى زعمه، بمعنى أن الحب يجب أن لايتخطى فى أنانيته نقطة بعينها، إلا أنه يجب أن يكون من النوع الذى يجعل الفرد يشعر بأن سعادته رهنا بنجاحه فيه، أى أنه لايكون حباً قائماً على "إنكار الذات" فعلينا بلاشك أن نرغب السعادة لمن نحبهم ولكن ليست باعتبارها بديلاً لسعادتنا[2].

كما يتفق رسل مع أصحاب مذهب المنفعةفى:

أولاً : فى أن سعادة المجموع والمجتمع بصورة عامة هى الغاية غير المباشرة إذا ما حقق كل فرد لنفسه السعادة.

ثانياً : أن هناك إمكانية البحث عن السعادة.

ثالثاً : ان الأخلاق والفضائل والدولة وكل إمكانياتها وسائل فى خدمة السعادة، فاعتبر السعادة هى المعيار الذى نقيس به قيمة أى تشريع أو نظام، وإن كان رسل لم ينظر تلك النظرة الكمية للسعادة كما فعل أنصار مذهب المنفعة، إلا أنه قصد سعادة الفرد بشكل عام.

رابعاً : لابد من التساؤل دائماً عند الحكم على نظام معين (اجتماعى - سياسى - أخلاقى) عن مدى نفعه أو فائدته باعتباره أداة أو وسيلة تتأدى بنا إلى تلك الغاية. فالنظام الاجتماعى الذى لايؤدى إلى السعادة يتعرض للإنهيار. وإذا كان هناك علاقة وثيقة بين الحياة السعيدة والحياة الخيرة، فإن أسعد الناس أفضلهم.

---

(١) B. Russell : The Conquest Of Happiness, P. 144.

(٢) Ibiid., PP. 190 - 191

٥ - وكما حرص جون ستيوارت همل على تفسير المفاهيم الأخلاقية وتطبيقها على الحالات الجزئية دون الرجوع إلى الأوامر الإلهية أو رجال اللاهوت، أو التسليم بأفكار نظرية أو قوى حدسية سابقة على التجربة كما يفعل الحدسيون[١]. كذلك فعل رسل عند تناوله للمفاهيم الأخلاقية، فكان يلجأ إلى ضرب الأمثلة من الواقع ويحلل هذه المفاهيم ليس فقط من حيث نتائجها الظاهرة أو السلوك الظاهرى للفرد، إنما أيضاً من حيث تأثيرها على الحالة النفسية والعقلية للفاعل. كذلك كان لايعتمد عند تعريف مفهوم أو مصطلح على التعريفات النظرية المجردة، بل كان يوضحه من خلال أمثلة فى الواقع أو من الحالات الجزئية التى ينطبق عليها المفهوم، ومثل هذه النظرة للمفهوم الأخلاقى، تجعل المفهوم أو المعتقد أقرب إلى العبارة الوصفية، التى لايتحتم أن يكون لها معنى إلا بالرجوع إلى الواقع، وإن كان المعيار هنا مختلفاً (فليس من الناحية الوجودية أو المعرفية). بل من حيث النتائج فى الواقع. فإذا كان للمفهوم من خلال تطبيقاته نتائج أفضل ظاهرية كانت (للفرد والمجتمع أو باطنية (على الحالة النفسية للفرد) نبقى عليه. أما إذا كانت النتائج سيئة بمعنى أنه تؤدى إلى نوع من التعارض بين الفرد نفسه، أو بينه وبين المجتمع، فيجب التخلص منه أو بتره ولقد وضح ذلك فى رفض رسل لمبدأ "إنكار الذات" وغيره من المفاهيم الأخلاقية التى تخضع لنفس المعيار. ويمكن تشبيه الحذف هنا بقاعدة "نصل أوكام" أو تطبيقها بمعنى واسع على المفاهيم الأخلاقية التى يثبت سوء نتائجها، فطالما أن مبدأ "إنكار الذات" يؤدى إلى نتائج سيئة على الحالة النفسية للفاعل ويجعله فريسة للاستغراق الذاتى، وحين يمكن تحقيق نفس الأفعال التى ينادى بها "إنكار الذات" من خلال التوجه إلى الاهتمامات العامة التلقائية، فإنه ليس هناك ضرورة لمثل هذا المبدأ ويجب التخلص منه وحذفه نهائيا.

إلا أن رسل يحيد عن إطار المذهب النفعى فلم ينادِ بالأنانية أو "بحساب اللذات" أو أن يكون هدف الأخلاق تحقيق اللذة أو السعادة أو المنفعة، بقدر ما أن هدفها وضع معايير للتميز بين الرغبات الحسنة والرغبات السيئة والتشجيع على الرغبات الحسنة، كذلك لايتفق مع "جون ستيوراث مل" فى اعتبار أن اللذة هى الشىء الوحيد المرغوب فيه[٢].

---

(١) توفيق الطويل، الفلسفة الخلقية، منشأة المعارف، الاسكندرية، ص ٢٣٩.

(١) برتراند رسل : تاريخ الفلسفة الغربية، الجزء الثالث، ترجمة د. محمد فتحى الشنيطى، الهيئة العامة للكتاب، القاهرة، ص٤١٨.

كما يختلف رسل مع بنتام فى إقراره للحرية، لأن بنتام يعتبر القول بالحرية وحقوق الإنسان لغوا صرفاً فكأن مثله الأعلى كمثل أبيقورس "الأمن لا الحرية"[1]، أما رسل فإنه يعتبر الحرية شرطاً ضرورياً لتحقيق السعادة وفى نفس الوقت هى الغاية البعيدة من تحقيقها. فالشعور بالسعادة يعد أمراً ضرورياً لحياة أخلاقية أفضل ولمجتمع أفضل. فالسعادة ليست مطلباً فى حد ذاتها كما يرى النفعيون بل وسيلة لغاية، فالمجتمع الذى يتمتع أفراده بالسعادة لايسعى إلى شن الحرب والعدوان، والإنسان السعيد لايسعى إلى السيطرة والقسوة. الشعور بالسعادة أداة ضرورية لتحرر الإنسان . فالحرية هى الغاية النهائية "الخير الأقصى" كما يعتبر رسل السعادة هدفاً إنسانياً عاماً ومطلباً ضرورياً لاستمرار الحياة الإنسانية، ولذلك يقترب من أصحاب مذاهب الطاقة الحيوية، الذين اعتبروا أن سعادة الإنسان تكون فى إشباع طاقاته كلها، وليست فى الحصول على الذات باعتبارها معياراً أوحداً للسعادة. إذ يرى أن سعادة الإنسان لابد أن تشمل حياته كلها وتحقق له السعادة العقلية والحسية والنفسية.

٦ - رفض رسل اعتبار السعادة الروحية الهدف النهائى أو الخير الأقصى الذى يسعى الإنسان الفاضل لتحقيقه. كما قال أرسطو وأفلاطون، وليست سعادة الآلهة أو السعادة الميتافيزيقية هى ما يبحث الإنسان عنها فالسعادة مطلب ضرورى لابد أن يحققه الإنسان فى هذا العالم لأنه ميدان الخبرة المتاحة لنا. لذلك لاتكون السعادة فى إماتة الشهوات والبعد عن اللذات وإهمال الرغبات والتحكم فيها، وإنما تكون فى إشباعها، ويقول رسل بمبدأ يقترب به من مبدأ أرسطو فى تحقيق الاعتدال أو التوسط أو الانسجام، حيث يرى أن السعادة تكون فى الإشباع الواعى المنظم المعتدل لرغبات الإنسان وفى تحقيق حريته، وإشباع حاجاته الضرورية الأولية، وفى الاستمتاع بالحياة والانفتاح على العالم. فالسعادة فى الحياة الواقعية وليست سعادة عقلية فقط أو سعادة الآخرة كما قال فلاسفة المسيحية. لذلك لايعد رسل من أنصار السعادة الروحية. كما أنه يحيد عن المذهب المنفعى أيضاً فى عدم القول بأن السعادة فى تحقيق اللذة أو المنفعة وإنما يقترب موقفه من المذاهب المعاصرة فى علم النفس، التى ترى أن السعادة فى تحقيق الذات. ويكون ذلك من خلال تحقيق إمكاناتها وإشباع رغباتها بصورة لاتتعارض مع المجتمع وقيمه. وكذلك تحقيق التوافق والانسجام بين طبقات الشعور الإنسانى، بحيث يكون هناك نوع من الهارمونية بين جوانب

(١) المرجع السابق نفسه، ص ٤١٦.

الذات، وأن تحرر الذات من سيطرة الأهواء والانفعالات المدمرة التى تمثل حاجزاً بين الذات والعالم الخارجى، فتؤدى الإصابة بالاستغراق الذاتى أو تمحور الفرد حول ذاته.

٧ - والحقيقة أن رسل لم يعط للدين أو للتدين أى دور فى الإحساس أو الشعور بالسعادة. فالدين فى نظره لا يمكن أن يسبب أى نوع من أنواع السعادة. بل لقد اعتبر أن ما يعد فضائل أخلاقية من وجهة نظر رجال الكنيسة. لايمكن أن يحقق السعادة للإنسان كما قد بدى لهم. فالإنسان الفاضل بالمفهوم المسيحى للأخلاق، يراه رسل إنساناً تعيساً، لأنه يتخلى عن مقومات الحياة الأساسية من أجل تحقيق الفضيلة. كما يرى فى دعوة الأخلاق المسيحية إلى الزهد والبعد عن متع الحياة سبباً رئيسياً لتعاسة الإنسان، لأنها تكبت رغباته وتقف حائلاً أمام إشباع حاجاته الضرورية، فتفسد صحته النفسية. فالإنسان المتدين يصاب بنوع من ازدواج الشخصية والشعور بالذنب والخوف من الفضيحة والعقاب. كما تؤدى إلى انتشار الحسد والكراهية والتعب. ويرتبط رفض رسل اعتبار الدين مصدراً للسعادة، برفضه للظاهرة الدينية بصورة عامة. لذلك لم يجعل اكتساب الإنسان للفضائل بالمعنى الدينى لها، سبباً فى تحقيق سعادته. فليست هناك سعادة روحية أو أخروية كما ترى الأخلاق المسيحية، بل السعادة الحقيقية يجب الحصول عليها فى الحياة الواقعية، ولايكون ذلك بالزهد أو البعد عن المتع والحرمان، وإنما بالإشباع الكامل للرغبات والحاجات الضرورية والاستمتاع بالحياة.

والحقيقة أن نقد رسل للديانة المسيحية لاينطبق بالضرورة على كل الأديان. فالدين الإسلامى مثلا لم يطالب بتحقيق السعادة الأخروية على حساب السعادة الدنيوية، إنما أكد على أن الإنسان يجب أن يسعى نحو تحقيق سعادته فى الدنيا وفى الآخرة. فلم يهمل الجانب الحسى والمادى للإنسان أو طالب بضرورة التضحية به، بل أكد على ضرورة استمتاع الإنسان بملذات الحياة. كما لم يطلب كبت الرغبات الطبيعية للإنسان، إنما أكد على ضرورة إشباعها بطرق لا تتعارض مع قيم المجتمع وأخلاقيات المسلم. والواقع أن السعادة التى يحصل عليها الفرد المتدين تعد سعادة من نوع خاص فهى نوع من الحالة الوجدانية المصاحبة للأنشطة المختلفة التى يمارسها الفرد، فهى سعادة تنبع من الإحساس بالراحة النفسية. لذلك ليس بالضرورة اعتبار الدين غير ضرورى لتحقيق السعادة - كما يرى رسل - فالسعادة التى يشعرها الإنسان من إحساسه بالقرب من الله. سعادة لايمكن وصفها أو الحصول عليها من مصادر أخرى لأنها سعادة من نوع خاص.

٨ - لقد نظر رسل للسعادة باعتبارها موضوعاً أو كياناً مستقلاً يمكن تحديد والحصول عليه. والحقيقة أنه بذلك قد قضى على الصفة الوجدانية للسعادة. ومثل هذه النظرة تشبه إلى حد كبير النظرة العلمية حيث اعتبر السعادة ظاهرة محددة يمكن دراستها. فقد بدأ بتحديد أسباب التعاسة ثم طرق التخلص منها. ثم وسائل تحقيق السعادة. والواقع أن تطبيق مثل هذه النظرة العلمية على السعادة يسلبها قيمتها. كما يحدث مثلاً عند دراسة عاطفة الحب دراسة علمية جافة. إن السعادة لايمكن تحديدها أو قياسها أو التعرف عليها فهى حالة وجدانية مصاحبة لأفعال الإنسان وإحساسه الداخلى لذلك فهى تجربة ذاتية بحتة تتصف بالنسبية وتختلف من فرد إلى آخر ومتقلبة إلى حد ما. فالإحساس بالسعادة أشبه بالتجربة الصوفية إحساس لايستطيع أن ينقله الإنسان للآخرين أو يصبه فى عبارات لغوية محددة. فقد يرى الإنسان أن السعادة فى الحرية. إلا أن إحساس السعادة وما يشعر به لايستطيع التعبير عنه.

إن البحث عن السعادة يفقدها معناها لأنها ليست حالة أو أسلوباً فى الوجود، بل هى هبة مجانية. فقد يشعر الفرد بالسعادة بعد قيامه بإنجاز عمل ما. مع أنه لم يكن يتصور أن هناك ارتباط علىّ بين قيامه بالعمل وإحساسه بالسعادة قبل الإقدام عليه. وقد يمكن الإتفاق مع رسل فى القول مثلا بأن العمل والاستمتاع بالحياة وإشباع الحاجات الضرورية، سوف يؤدى بالضرورة إلى السعادة، وقد يمكن أن يتصور الإنسان ذلك تصوراً نظرياً. إلا أن الأحساس بالسعادة يأتى بصورة مفاجئة. فالسعادة حالة وجدانية شبيه إلى حد كبير بالإلهام أو الحدس ولايمكن التحكم فيها، ولايمكن أن تستنتج أنه إذا ما قام فرد ما باتباع كل مقومات السعادة - كما حددها رسل - فإنه لابد حاصل عليها ومتمتع بها. فالسعادة لايمكن الحصول عليها بالتكتيك والتخطيط كما يفعل الإنسان لكسب معركة حربية مثلا، لأنها ليست ظاهرة حسية ملموسة أو أنها يمكن أن تؤخذ بالقوة. إن شأن السعادة أن يشعر بها الإنسان من حيث لايدرى فهى أقرب إلى الهبة أو المنحة. وإذا سلمنا جدلاً أن الإنسان أصبح مقتنعاً بإمكانية الحصول على السعادة واكتسابها. فإن ذلك سوف يدفعه بلا شك نحو التنافس والصراع والأنانية، وهى عين الأهواء التى اعتبرها رسل هادمة لسعادة الإنسان، لأن الإحساس بإمكانية الحصول على السعادة قد يولد لدى الفرد الشعور بالأثرة، ولما كانت مصالح الأفراد متشابكة ومتعارضة فإن ذلك سوف يؤدى إلى نوع من التنافس.